ترومان كابوتي

مكتبة

إفطار عند تيفاني



إفطار عند تيفاني

مكتبة | سُر مَن قرأ

ترومان كابوتي

telegram @soramnqraa

إفطار عند تيفاني

وقصص أخرى

ترجمة: مجدي خاطر

هذا الكتاب بدعم من:



مبادرة 1001 عنوان

إفطار عند تيفاني

تأليف: ترومان كابوتي
ترجمة: مجدي خاطر
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-105-5



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae



KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

إلى جاك دنفي.

الفهرس

إفطار عند تيفاني

مكتبة | سُر مَن قرأ

أحنّ دومًا للعودة إلى أماكن عشتُ فيها: المساكن وما جاورها. مثلاً، تلك البناية المشيّدة بالطوب الأحمر، الواقعة على أحد شوارع إيست سفنتيز، حيث، خلال السنوات الأولى من الحرب، حُزتُ شقتي الأولى في مدينة نيويورك. كانت غُرفة واحدة تكْتَظّ بأثاث كلاسيكي، أريكة وعدة كراسي عريضة مُنَجّدة بالمخمل الأحمر المُثير للحكاك، كالّذي يُرافق المرء في سفره خلال الأيام الساخنة على متن قطار. الجدران منقوشة بزخارف جصّية، عسليّة اللون إلى حد ما. وفي كل مكان، كذلك في الحمام، ثمّة مُلصقات لآثار رومانية مُبقّعة بنمش بني بفعل الزمن. تُطل النافذة الوحيدة على سلّم للطوارئ. مع ذلك، انتشيت لمّا تحسست في جيبي مفتاح هذه الشقة: فرغم ظُلْمتها، ظلّت حيّزي الخاص، والأول. كانت كتبي هناك. إن جرّة أقلام رصاص في انتظار الشّحذ هي كل ما احتجته، لأصير الكاتب الّذي رغبته.. أو هكذا شعرت.

لم يتراءَ لي قط في تلك الأيام أن أكتب عن هولّي جولايتلي، ومن الجائز أنّه ما كنت لأفعل الآن لولا حديث دار بيني وبين جو بيل أهاج ذكرياتي عنها مُجدداً.

كانت هولّي جولايتلي تستأجر شقة في بناية الطوب الأحمر العتيقة، وكانت تسكن أسفل مني مباشرة. وفيما يتعلق بجو بيلّ، كان يُدير

حانة قريبة من ناصية جادة ليكسنغتون، ولا يزال. كُنّا–أنا وهولّي– قد اعتدنا الذهاب إلى هناك ست مرّات يومياً أو سبع، لا للشراب، ليس دائماً بالضرورة، لكن لإجراء مكالمات تليفونيّة: فأثناء الحرب كان امتلاك هاتف شخصيّ أمراً عسيراً. فضلاً عن كفاءة جو بيل في الاضطلاع بالرسائل، وهو ما كان في حالة هولّي، ليس بالمعروف الهيّن؛ فلديها من الرسائل عدد هائل الوفرة.

طبعاً، كان ذلك منذُ زمن بعيد، وحتى الأسبوع الفائت لم أكن قد رأيت جو بيل منذ سنوات عديدة. كُنا نلتقي بين الحين والآخر، وأحياناً كنت أتوقف عند حانته حين أكون ماراً بالجوار، لكن فعلياً لم نكن قط صديقين حميمين إلا بقدر ما كنّا سوياً صديقين لهولّي جولايتلي. جو بيل ليس بالرجل لين العريكة، وهو بنفسه يُقر بذلك، ويُعيد سببه إلى كونه أعزبَ وصاحب معدة نَكِدة. وكل من يعرفونه يتفقون على كونه رجلاً من العسير مبادلته الحديث. مُحال! إذا كنت لا تشاركه الاهتمامات نفسها، والتي تُعد هولّي إحداها، مثل هوكي الجليد، وكلاب الوايمري، والمسلسل الإذاعي *Our Gal Sunday* (تابعه لخمسة عشرة عاماً)، وجيلبرت وسوليفان[1]، وهو يدّعي قرابة بأحدهما، لا أذكر أيهما بالتحديد.

وهكذا، حين رنّ جرس الهاتف مساء الثلاثاء الماضي، وسمعت: «معك جو بيل» علمت أن الأمر بلا شك يتعلق بهولّي؛ لم يقلْ ذلك، فقط: "هل تستطيع المجيء سريعاً إلى هنا؟ الأمر هام" فيما الإثارة تَبُحّ صوته الأجش.

ركبت سيارة أجرة مغموراً بمطر تشرين الأول/أكتوبر الغزير، وفي

(1) مؤلفان موسيقيان. (المترجم)

طريقي فكرت أنّها ربما تكون هناك، وأنني سأرى هولّي مرة أخرى. لكن لم يكن ثمة أحد في المبنى والجوار، سواه. تُعدّ حانة جو بيل مكاناً هادئاً مقارنةً بأغلب حانات جادّة ليكسنغتون، وهي تُفاخر بذلك، لا بأضواء النيون ولا التلفاز. ثمّة مرآتان قديمتان تعكسان الطقس في الشوارع. وخلف البار، في كوّة مُحاطة بصور فوتوغرافيّة لبعض نجوم هوكي الجليد، ثمّة مزهريّة ضخمة تحمل دائماً وروداً نضرة، ينمّقها جو بيل نفسه بعناية ووقار. وكان هذا حاله حين دخلت.

«طبعاً ..»، قال، فيما يُثبّت زهرة زنبق عَميقاً داخل المزهريّة. «.. ما كنت لأستدعيك إلى هنا لو لم أكنّ أنشد رأيك؛ فما حدث أمر غريب، غريب بحق.»

«هل بلغك شيء عن هولّي؟»

تحسس ورقة نبات، كأنّه غير واثق كيف يجيب. كان رجلاً ضئيلاً برأس دقيقة الحجم وشعر أبيض خشن، يحوزُ وجهاً مائلًا ناتئ العِظام يليق برجل أكثر طولاً، وتبدو بَشَرته دوماً وكأنّ الشمس قد لفحتها، وهي الآن قد ازدادت احمرارًا. «لا يسعني القول تحديداً بأنّه قد بلغني شيء عنها. أعني، لا أدري. هذا هو سبب رغبتي في معرفة رأيك. دعني أحضّر شراباً، مزيجًا جديدًا يسمّونه الملاك الأبيض.» شرع يخلط نصف مقدار من الفودكا مع نصف جِنْ بدون فيرموت، وفيما كنتُ أشرب كأسي وقف جو بيل يمصّ حبّة دواء مهدّئة لثوران معدته، ويقلب في رأسه ما يجب أن يخبرني به. ثمّ قال: «هل تذكر رجلًا ما يُدعى آي.واي. يونيوشي، من اليابان؟» قلت: «من كاليفورنيا،» متذكراً السيد يونيوشي تماماً. لقد عمل

مصوراً فوتوغرافياً في واحدة من المجلات المُصوَّرة. أمّا حين عرفته فقد كان يعيش في مُختَرَفه في الطابق العلوي من بناية الطوب الأحمر.

«لا تخلط الأمور وتشوّشني. أردت التأكد من أنك تعرف من أعنيه تمامًا، فمن عساه يندفع متخبّطاً إلى هنا غير السيّد آي.واي. يونيوشي نفسه! لم أره منذ أكثر من عامين ربما، لكن أين تظنّه كان خلال هذين العامين؟»

«في أفريقيا.»

كفّ جو بيل عن قرمشة حبّة الدواء، وضاقت عيناه: «كيف عرفت؟»

«قرأته في عمود وينشل الصحفي.» وكانت الصحيفة عندي في الواقع.

فتح صندوق النقد الذي أصدر رنيناً، وأخرج مُغَلّف مانيلا: «طيب، لنرَ ما إذا كنت قد قرأت ذلك في عمود وينشلّ.»

كانت ثلاث صور فوتوغرافية في المُغلّف، أو صورة واحدة لكنها مأخوذة من زوايا مغايرة؛ هناك زنجي هزيل يلبس تنورة كاليكو منقوشة، بابتسامة خجولة وإن لم تذهب سدى، يعرض بيديه تمثالاً خشبيًّا: منحوتة مستطيلة لرأس فتاة، شعرها ناعم وقصير كأنّه لرجل، وعيناها الخشبيتان المصقولتان واسعتان وغائرتان في الوجه المُستدّق، وفمها واسع مسحوب مثل شفاه مهرّج. للوهلة الأولى، بدا لي أن التمثال يُشبِه أغلب المنحوتات البدائية، لكن سرعان ما انتبهت إلى أن الفتاة المنحوتة هي نفسها هولّي جولايتلي، أو على الأقل تشبهها بالقدر الذي يمكن أن يكون

عليه شيء ساكن داكن.
«الآن، ما تقول حيال ما رأيت؟» شاعراً بالرّضا من حيرتي.
«المنحوتة تشبهها.»
«اسمع يا بني،» وصفع طاولة البار بكفّيه: «إنّها هي، أنا على يقين من ذلك كيقيني من أنّي رجل قادر على ارتداء بنطلونات قصيرة. لقد ميزّها اليابانيّ القصير فور أن رآها.»
«هل رآها؟ في أفريقيا؟»
«رأى التمثال فقط هناك. لكن سيّان، فذلك يعني الشيء نفسه. اقرأ الوقائع بنفسك.» وقلب إحدى الصور. لقد كُتب على ظهرها: «نحت خشبيّ، قبيلة س، توكوكول، إيست أنجيليا، يوم عيد الميلاد، 1956.»

وتابع: «هذا ما قاله الياباني.» والقصّة كالتالي: مرّ السيد يونيوشي يوم عيد الميلاد مصطحبًا الكاميرا خلال توكوكول، وهي قرية في الأدغال في مكان ناء لا تثير الانتباه، ليست سوى حشد من عشش طينيّة. ترى في أفنيتهم الخلفية قرودًا، وفوق الأسقف صقورًا. كان قد عزم على المُضي قُدماً حين رأى بغتة زنجياً يُقرفص عند عتبة باب ينحت قروداً على عُكّاز. انبهر السيد يونيوشي وطلب رؤية مزيد من مشغولاته، وحينها رأى منحوتة رأس الفتاة: فشعر، كما قال لجو بيلّ، كأنّه سقط في حُلم. لكنّه، حين عرض شراء القطعة، كوَّب الزنجي كفيه على عورته (ممّا يعني ظاهريًّا بادرة عطاء، مقارنة بنقرة على القلب) ورفض. لم يُفلح في إثنائه رطل ملح وعشرة دولارات، أو ساعة معصم ورطلَي ملح وعشرون دولاراً. وفي كل الأحوال كان السيد يونيوشي مصمماً على معرفة الكيفية التي تُصنع بها

المنحوتة. كلّفه الأمر ملحه وساعته، وقد تواصلا سوياً بالرطانة الإنكليزية والإفريقية ولغة الإشارة. لكن بدا أنّه في ربيع تلك السنة قد شوهد فريق من ثلاثة بيض يتجولون على جيادهم: امرأة شابّة ورجلين. كان الرجلان، وعيونهما مُحتقنة من الانفعال، قد أُرغموا على البقاء مُحتجزين يرتعدون في كوخ منعزل، فيما وقعت المرأة لتوّها في غرام نحّات الخشب، وشاركته حصيره.

قال جو بيل مُتشكّكاً: «يراودني شك كبير في هذه الجزئيّة.» «أعلم أن لها أساليبَ خاصّة، لكنني لا أظن أنّها تصل إلى تلك الدرجة!»

«ثمّ؟»

«ثمّ لا شيء.» هازّاً كتفيه، وتابع: «سرعان ما عادت أدراجها خالية الوفاض، ممتطية صهوة جوادها.»

«بمفردها أم برفقة الرجلين؟»

رفّت عينا جو بيلَ: «أظن برفقة الرجلين. والآن الياباني، الذي جاب البلاد بحثاً عنها. لكن أحداً سواهما لم يرها على الإطلاق.» ثم وكأنّه أحسّ أن شعوري بخيبة الأمل ينتقل إليه، وفيما لم يكن بحاجة ولو لنزر يسير منه، قال: «شيء واحد ينبغي عليك الاعتراف به، إنّه الخبر الواضح الوحيد من بين ما لا يُحصى من الأخبار خلال..» ثم شرع بالعدّ على أصابعه التي لم تكن كافية «...سنوات كثيرة، جُلّ ما أتمناه أن تكون ثريّة. لابد أنّها كذلك. لابد أن تكون ثرياً كي تتسكّع هكذا في أفريقيا.»

«من الجائز ألا تكون قد خطت بقدميها في أفريقيا أبداً.» قلت ذلك عن إيمان، رغم قدرتي على تخيلها هناك، في مكانٍ ما قد تذهب إليه. والرأس المنحوتة: تفحّصت الصور مُجدداً.

«أنت تعلم الكثير. أين هي؟»

«ميتة. أو داخل مأوى للمخبولين. أو متزوجة. أظنها تزوجت وهي الآن مرتاحة البال وربما تكون في هذه المدينة تحديداً.»

أطرق برهة، ثم قال هازاً رأسه: «كلا، وسأخبرك بالسبب. لو كانت هنا كنت سأراها. خذ عندك مثلاً رجلاً يحب المشي، رجلًا مثلي، رجلًا تنزّه في الشوارع عشر سنين أو اثنتي عشرة، وخلال كل تلك السنوات يسلط عينيه على الوجوه بحثاً عن شخص ما، كذلك لم يرها أحد قط، أليس في ذلك سبب وجيه لنفي وجودها هنا؟ أرى عينات منها طيلة الوقت: أرداف صغيرة مسطّحة، وأيّ فتاة نحيلة تمشي مسرعة باستقامة.» وتأنّى كأنّه يدري مدى تركيزي الشديد أثناء تحديقي به. «هل تظن أنني مشوش؟»

«كل ما في الأمر هو أنني لم أكن أعلم أنّك تحبها. ليس لهذه الدرجة.»

ندمت على كلامي الّذي أربكه. جمع الصّور وأعادها للمُغلّف، فنظرت إلى ساعتي، لم تكن لي وجهة مُعينة، لكنني أحسست أنّه من الأفضل أن أرحل.

قال، قابضاً على معصمي: «مهلاً. بالتأكيد أحببتها. لكن ليس حبّاً لمعاشرتها.»

وأضاف دون أن يبتسم: «ليس لأنني لا أفكر في هذا الجانب من الأمور. حتى في سني، وأنا على وشك بلوغ السابعة والستين في العاشر من يناير القادم. يا لها من حقيقة غريبة– لكن كلما كبرت، ازداد هذا الجانب بروزاً أكثر وأكثر. لا أذكر أنّني قد فكرت في الحب كثيراً حتى حين كنت صبياً، ومع ذلك أفكر فيه كل لحظة. ربما كلّما شاخ المرء قلّت قدرته على تحويل الأفكار إلى أفعال، من الجائز

أن يكون ذلك سبباً في إغلاق العقل على أفكاره التي تصير عبئاً. متى قرأت في الصُحف عن رجل عجوز يُلْحِق عاراً بنفسه، أعلم أن السبب في ذلك هو هذا العبء. لكن..» وصبّ لنفسه قدحاً من الويسكي وتجرعه مُركّزاً: «لن أهين نفسي، وأقسم أن هولي لم تخطر ببالي على هذا النحو. بمقدورك أن تحب شخصاً ما دون وجود هذا الخاطر. تبقيه غريباً، غريبًا وصديقًا.»

دلف رجلان إلى الحانة، وبدا أن الوقت قد آن لرحيلي، وتبعني جو بيل إلى الباب، وأمسك معصمي مرة أخرى: «هل تصدق ذلك؟»

«هل تقصد أنّك لم ترغب بها؟»

«بل أقصد أفريقيا.»

عند تلك اللحظة لم يتراء لي أنّني أذكر القصة، بل صورتها فحسب وهي تنطلق فوق صهوة جواد.

«على كلٍّ، لقد رحلت.» عقّب، فيما يفتح الباب: «بلى. رحلت وحسب.»

كان المطر قد توقف في الخارج، مجرّد ضباب عالق في الهواء، لذا درت حول الناصية ومشيت بمحاذاة الشّارع حيث تنهض بناية الطوب الأحمر. كانت الأشجار تحفّ الشارع بشكل يجعل منها أثناء الصيف نقوشاً شيّقة فوق الرصيف، لكن الأوراق الآن مُصفرّة وأغلبها متساقط، وقد جعلها المطر زَلقة، تدوسها الأقدام. تتوسط بناية الطوب الأحمر التجمّعَ السكني، بجانب كنيسة حيث ترتفع ساعة فوق برج أزرق تدقّ كل ساعة. كانت قد رُمّمت منذ يوم مجيئي، فأُستبدلت الواجهة ذات الزجاج المُضبّب القديم بأخرى سوداء عَصريّة، ومصاريع أنيقة تؤطر النوافذ. لا

أذكر أحداً ما يزال يعيش هناك سوى مدام سافيا سبانيلا: مغنية أوبرا ذات صوت أجش، تذهب بعد كل ظهيرة للتزلّج بالعجلات في السنترال بارك. أعلم أنّها ما تزال هناك، لأنّني ارتقيت الدرج وتفحصت صناديق البريد، فقد كان واحداً منها هو ما جعلني أنتبه إلى هولّي جولايتلي لأوّل مرة.

* * *

لم يكن قد مرّ على عيشي في المنزل سوى أسبوع، حين لاحظت أن صندوق بريد الشقة رقم 2 يحمل كوّة خاصّة بالاسم، دُسّتْ فيها بطاقة غريبة؛ بطاقة مطبوعة، بالأحرى بخطوط مُتصلة أنيقة: الآنسة **هولّيداي جولديتلي**، وأسفله في الركن، **مسافرة**. أثارتني الكلمات مثل أهزوجة: الآنسة **هوليداي جولديتلي، مسافرة**.

ذات ليلة، بعد منتصف الليل بكثير، استيقظت على صوت السيد يونيوشي وقد وصل إلى أسفل الدّرَج، وبما أنّه يسكن في الطابق العلوي، فقد ملأ صوته المنزل بأكمله، حانقاً وعابساً. «آنسة جولايتلي! لابد أن أعلن احتجاجي.»

فأجابه صوتٌ مُتدفَق من قاع الدّرَج، غرّ وغنج: «أوه يا عزيزي، أنا آسفة بحق. لقد فقدت المفتاح اللعين.»

«لا يمكنك مواصلة قرع جرسي، ينبغي رجاء، رجاء أن تحتفظي بمفتاح بديل.»

«لكنني فقدتهم جميعاً.»

صرخ السيد يونيوشي: «أنا أعمل، ويجب أن أنام. لكنك دائماً ما تقرعين جرسي...»

«أوه، لا تغضب، يا صغيري العزيز: لن أفعل ذلك مرة أخرى، وإذا وعدتني ألّا تغضب...» كان صوتها يقترب؛ فيما تصعد الدّرَج: «قد أسمح لك بالتقاط تلك الصور التي سبق وتكلمنا عنها.»
كنت الآن قد غادرت فراشي وواربت الباب قليلاً، يُمكنني سماع صمت السيد يونيوشي، فقد كان مصحوباً بتبدّل مسموع في النّفس.
قال: «متى؟»
ضحكت الفتاة، وأجابت فيما تأكل الحروف: «يوماً ما.»
«أنا مستعد في أيّ وقت.» وأغلق بابه.
خرجت إلى الرّدهة متكئاً على الدّرابزين بما يكفي كي أراقب دون أن يلحظني أحد. كانت ما تزال على الدَرَج وقد بلغت الآن منبسطه، وقد أضاء ضوء الرّدهة مزيجَ ألوان شعرها الصبياني؛ خطوط سمراء في جدائل شقراء وصفراء. كانت ليلة دافئة، صيفية تقريباً، وكانت تلبس فستاناً أسود ضيقًا أنيقًا، ونعلًا سوداء، وياقة عالية لؤلؤية. إن لها، بالنظر إلى رشاقتها الفاتنة، صحّة من يتناول حبوب القمح والشوفان فطورًا، ونظافة المستحمّ بصابون الليمون، ففي جنتيها حُمرة مضطرمة قاتمة. كان فمها واسعاً وأنفها أشمّاً، فيما تُخفي عينيها تحت نظّارة داكنة. كان وجهاً تجاوز لتوه الطفولة، برغم أنّه يخصّ امرأة ناضجة. خمنت أن يكون عمرها بين السادسة عشرة والثلاثين. وكما تبيّن لاحقاً، كان يعوزها شهرين لتُتمّ عيد ميلادها التاسع عشر.
لم تكن بمفردها؛ فثمّة رجل يتبعها. بدت الطريقة التي تتشبّث بها يدُه الممتلئة بردفها غير لائقة إلى حدٍّ ما، أعني ليس من وجهة

أخلاقيّة، بل جماليّة. كان قصيراً وعريض المنكبين، لوّحته الشمس، ويرتدي حُلة مخططة بأكتاف مُبطنة، وتُزيّن زهرة قرنفل حمراء طيّة صدر المعطف. حين بلغا بابها، بعثرت محتويات حقيبتها الصغيرة بحثاً عن مفتاح دون أن تولي اهتماما بحقيقة أن شفتيه اللحيمتين كانتا تتمرغان على مؤخرة عنقها. في النهاية، ومع أنّها وجدت المفتاح وفتحت بابها، فقد استدارت إليه بمودّة:
«باركك الله يا عزيزي، لقد كانَ لُطفاً منك أن توصلني إلى المنزل.»
«مهلاً يا صغيرتي!» كان الباب يوصد في وجهه.
«نعم، هاري؟»
«لقد كان هاري الرجل الآخر. أنا سِد، سِد أربوك. أنت تميلين إليّ.»
«أنا أعْبُدك يا سيد أربوك. لكن تُصبح على خير يا سيد أربوك.»
راح يحدّق غير مُصدّق فيما ينغلق الباب بحزم. «مهلاً يا عزيزتي، دعيني أدخل. إنّكِ تميلين إليّ يا طفلتي، أنا رجل محبوب. ألم أسدّد الفاتورة لخمسة أشخاص، أصدقائك، الّذين لم أرهم من قبل قط؟ ألا يعطيني ذلك الحق بأن تميلي إليّ يا طفلتي.»
نقر على الباب بلطف، ثمّ أكثر صخباً، في النهاية رجع عدة خطوات للوراء، وقد تحدّب جسده وتكوّر، كأنّه ينتوي مهاجمة الباب، وتحطيمه. لكنه بدلاً من ذلك، غطس أسفل الدّرَج، يلطم الجدار بقبضته، وبمجرّد أن وصل إلى الدور الأرضي انفتح باب شقة الفتاة التي أطلّت برأسها.
«أوه، يا سيد أربوك...»
عاد الرجل أدراجه، ترتسم على وجهه ابتسامة ارتياح وتملّق: كانت تسخر منه فحسب.

«في المرة القادمة، عندما تريد امرأة مالًا، ولو بعض القروش للذهاب إلى حمام السيّدات...» ثم صاحت دون سخرية «... فخُذ بنصيحتي يا عزيزي: لا تعطها ولو عشرين سنتاً!»

* * *

حافظت على وعدها للسيد يونيوشي، أو افترضت أنّها فعلت ولم تقرع جرسه مرة أخرى، ففي الأيام التالية بدأت بقرع جرسي أنا، أحياناً في الثانية صباحاً، أو الثالثة، أو الرابعة: لم تشغل بالها بالساعة التي تنتزعني فيها من الفراش كي أدفع المزلاج الّذي يفتح الباب الخارجيّ لبناية الطّوب الأحمر. ولأنه لم يكن لي سوى عدد قليل من الأصدقاء، ليس بينهم من قد يأتي لزيارتي في وقت متأخر، كنت أعرف دوماً أنّها هي. لكن في المرّات الأولى، كنت أهرع إلى بابي، متوقعاً أنباءً سيئة، برقيّة مثلاً، فإذا بها الآنسة جولايتلي تهتف: «آسفة يا عزيزي، لقد نسيت مفتاحي.»

طبعاً، لم نلتق قبلاً قط. مع ذلك، في الحقيقة، كنّا غالباً ما نلتقي وجها لوجه، على الدرج أو في الشارع، لكن لم يبد عليها أنّها رأتني حقاً. دائماً تضع نظارتها الداكنة، مهندمة. ثمّة ذوق حقيقي متناسق في بساطة ملبسها؛ فغلبة اللون الأزرق والرماديّ وغياب البريق يُكسبها هي، هي وحدها، تألقاً. ربما يظن المرء أنّها «موديل» لمُصوّر فوتوغرافي، أو يجوز أنها ممثّلة شابّة، عدا أنّه كان واضحاً، بالنظر إلى مواقيتها، أنها لا تملك وقتاً لتكون أياً منهما.

أحياناً، أقابلها مصادفة خارج جيرتنا. مرّة قادني أحد أقربائي، وقد جاء لزيارتي، إلى مطعم «21»، وهناك، على منضدة بارزة، يحوطها

أربعة رجال، ليس بينهم السيد أربوك، ومع ذلك يمكن استبدال أيّ واحد منهم به، كانت الآنسة جولايتلي تمشّط شعرها بكسل، جهاراً، يرتسم على ملامحها سيماء السّأم المصطنع، مُشيعةً -بالمثل- حالة من الفتور وسط جو الإثارة الّذي استشعرتُه من الضجّة التي ترتفع في المكان الأنيق. وفي ليلة أخرى في عزّ الصيف، أرسلتني حرارة الغرفة للانطلاق في الشوارع. قطعت من الجادة الثالثة نحو شارع 51، حيث يقع متجر للتحف الأثرية يعرض في واجهته شيئًا أثار إعجابي: قفص طائر على هيئة قصر، بمآذن ومآو من الخيزران تتلهّف كي تملأها ببغاوات ثرثارة، لكن ثمنه كان ثلاثمائة وخمسين دولاراً. في طريق عودتي للمنزل لفت انتباهي سائق عربة أجرة يستحثّ حشداً أمام ملهى بي.جي.كلارك الليلي، مشدوهاً على ما يبدو أمام مجموعة مبتهجة من ضباط الجيش الأسترالي الثملين الذين يصدحون بأغنية والتزنج ماتيلدا! وبينما يتغنّون، يلفّون فتاةً لتؤدّي رقصة الدوّامة فوق بلاطات الشارع أسفل خطوط السكك الحديدية العلوية، والفتاة، الآنسة جولايتلي بلا شك، قد طفت بين أذرعهم خفيفة كأنّها وشاح.

لكن إذا كانت الآنسة جولايتلي قد ظلّت غير واعية لوجودي، عدا كجرس باب، فقد صرت على العكس، خلال الصيف، مُلمّاً بكل ما يخصّها. اكتشفت من ملاحظة سلّة المهملات خارج بابها، أنّها تقرأ بانتظام صُحف التابلويد ومطويّات السّفر وجداول التنجيم، وأنّها تدخن سجائر غير شائعة اسمها بيكايونيس، وأنّها تعيش على الجبن الأبيض وشرائح الخبز المحمّص، وأنّ شعرها متعدّد الألوان هو أمر من ابتكارها. المصدر نفسه كشف بصورة واضحة

أنّها تلقّت رزمًا من خطابات الحب من الجنود، وهي الخطابات التي دائماً ما كانت تُمزّق إلى شرائح مثل قصاصات الكُتب. اعتدت على التقاط قصاصة منها بين الحين والآخر أثناء مروري. كانت كلمات مثل ا»ذكريني» و»أفتقدك» و»مطر» و»اكتبي لي رجاءًا» و»تبًا» و»اللعنة» تتكرر دائمًا في تلك القصاصات، فضلاً عن «الوحشة» و»الحبّ.»

إن لديها أيضاً قطًّا، وتعزف على القيثارة. وهكذا، في الأيام التي تشتد فيها حرارة الشمس، تغسل شعرها وتجلس برفقة قطّها البرتقالي المخطط على سلم الطوارئ، تقلّب أوتار القيثارة ريثما يجفّ شعرها. كنتُ متى تناهى إلى سمعي صوت الموسيقى، أخف إلى النافذة لأقف في هدوء. كانت تعزف بمهارة وأحياناً كانت تغني أيضاً. تغني بنبرات حزينة مبحوحة كصوت غلام عند البلوغ. كانت مُلمّة بكل أغاني المسرحيات الاستعراضية الشائعة: كول بورتر وكورت فيل، وكانت تحبّ على الأخص أغاني فيلم **أوكلاهوما**، والذي كان يعرض حديثاً هذا الصيف في كل مكان. لكن تمرّ لحظات أثناء غنائها تجعل المرء يتساءل أين تعلّمت تلك الأغاني؟ ومن أين هي حقاً؟ ألحان شاردة شحيحة تصاحبها كلمات تفوح منها رائحة غابات الصنوبر والبراري. أحدها: «**لا أريد النوم، ولا أريد الموت، يكفيني السفر عبر مراعي السماء.**» وقد بدا أن تلك الأغنية كانت تروق لها أكثر من سواها؛ لأنها كثيراً ما كانت تبقى تردّدها حتى بعد أن يجف شعرها، وبعد أن تغيب الشمس وتُضاء النوافذ عند الغسق.

لكن تعارفنا لم يحرز تقدماً لغاية سبتمبر، في ليلة تتدفّق فيها

لسعات برد الخريف الأولى. كنت عائداً من مشاهدة فيلم، وقد دلفت إلى الفراش برفقة كأسي الأخير من البربون وآخر روايات سيمنون: كنت أخطّط لقضاء أمسية مُريحة، فلم أتمكن من تفسير شعورٍ بالقلق راح يتضاعف لدرجة تمكّنت معها من سماع دقات قلبي. كان شعوراً قرأت عنه، أو كتبت عنه، لكن لم أجربه قط. الإحساس بأنّك مُراقب من شخص ما في الغرفة. ثمّ: طرقة مباغتة على النافذة، ولمحة من طيف رماديّ جعلاني أُريق كأس البربون. احتجت بعض الوقت كي أسترد أنفاسي وأفتح الشبّاك: كي أسأل الآنسة جولايتلي عمّا أرادته!

قالت، واثبةً من سلّم الطوارئ إلى داخل الحجرة: «لديّ في الأسفل أكثر الرجال إثارة للذُعر.. أعني أنّه لطيف حين يكون صاحيًا، لكن دعه يتجرّع النبيذ، ويا الله من هذا الحيوان! لو أن ثمة شيئاً أمقته أكثر من غيره فهم الرجال الّذين يعضّون.» أرخت رداءً صوفياً ناعماً رماديّ اللون، كاشفةً كتفها لتُريني دليلاً لما يحدث حين يعضّ الرجل، كان الرداء هو كل ما تلبسه. «آسفة إنْ كنت قد أخفتك، لكن حالما أصاب الوحشَ الضّجرُ الشديد، سارعت فورًا إلى الهرب من الشباك. أظنّه يفكر أنّني في الحمام، لست أبالي بأفكاره اللعينة، فليذهب إلى الجحيم، سيصيبه التعب وينام، يا إلهي.. لابد أن ينام، لقد شرب ثمانية كؤوس مارتيني قبل العشاء وما يكفي لغسيل فيلٍ من النبيذ! اسمع، يمكنك إلقائي من النافذة إذا أردت؛ فقد أقحمت نفسي بوقاحة عليك بتلك الطريقة، لكن سلّم الطوارئ اللعين هذا كان يُجمّد الدّم في العروق، ولقد بدوتَ حميمًا، مثل شقيقي فريد. اعتدنا النوم أربعة على سرير واحد، وكان فريد

الوحيد الّذي يسمح لي باحتضانه في الليالي الباردة. بالمناسبة، هل تمانع لو دعوتك فريد؟» كانت في قلب الغرفة الآن، وقد توقفت هناك، تحدّق بي. لم يسبق لي قبلاً أن رأيتها بدون نظارتها الداكنة، وقد صار من الواضح الآن أنها عدسات طبيّة، بدونها تعاني عيناها من انحراف ما، مثل عينَي الصّائغ. كانت عيناها واسعتين، زرقاوين قليلاً، وخضراوين قليلاً، منقطتين بقليلٍ من اللون البنيّ: مُتعددة الألوان كشعرها، وقد ومضتا ببريق دافئ نابض بالحياة.

«أفترض أنّك تظنني وقحة، أو مجنونة جدًا. أو ما شابه.»

«كلا..على الإطلاق.»

تراءى لي أنّه خاب أملها. «بل تظن ذلك. الجميع يظنون ذلك، لكنني لا أبالي؛ فهو أمر مفيد.»

جلسَت على أحد الكراسي المفككة المُنجّدة بالمخمل الأحمر، ثانيةً ساقيها أسفلها، ثم ألقت نظرة على الحجرة، وضاقت عيناها بوضوح.

«كيف يتأتّى لك تحمّل هذه الحجرة؟ إنّها أشبه بغرفة تعذيب.»

قلت مُنزعجاً؛ فقد كنت مُبتهجاً بالمكان: «أوه، سرعان ما تعتادين كل شيء.»

«مُحال. لن أعتاد على أي شيء أبداً، ومن يفعل ربما يكون في عداد الأموات.» عاينَت عيناها المنتقدتان الحجرة مرة أخرى. «ماذا تفعل هنا طيلة اليوم؟»

أومأت إلى طاولة تغطيها الكتب والأوراق. «أكتب أشياء.»

«كنت أظن أن الكُتّاب هَرِمون. بالطبع ساروپان ليس عجوزاً؛ فقد قابلته في إحدى الحفلات، ولم يكن حقاً عجوزاً على الإطلاق. في

الحقيقة..»

ثمّ تابعت مستغرقةً في التفكير. «فقط لو أنّه يحلق لحيته تمامًا... بالمناسبة، هل همنغواي عجوز؟»

«في الأربعينيات من عمره، حسبما أظن.»

«ليس بالأمر السيئ. لا يجذبني الرجل حتى يبلغ الثانية والأربعين. أذكر هذه الفتاة المعتوهة التي ظلّت تكرر على مسامعي أنّه ينبغي لي الذهاب إلى طبيب نفسيّ، مُدّعيةً أنني أعاني من عقدة الأب، وهو أمر بالغ السوء. لقد مرّنت نفسي ببساطة على الإعجاب بالرجال الأكبر سناً، وهو أكثر ما فعلته براعة. كم يبلغ عمر وليام سومرست موم؟»

«لست مُتأكداً. ربما جاوز الستين بقليل.»

«هذا ليس بالأمر السيئ. لم أذهب إلى الفراش مع كاتب قط. لا، مهلاً: هل تعرف بنّي شاكليت؟» قطّبت جبينها حين هززت رأسي نفياً. «إنه لأمر ظريف. كان قد كتب عدداً وفيراً من المواد الإذاعية. لكن ياله من جرذ! قلْ لي، هل أنت كاتب حقاً؟»

«هذا يعتمد على مفهومك للكاتب الحقّ.»

«حسناً يا عزيزي، هل يشتري أحد ما تكتبه؟»

«إلى الآن، لا.»

«سأساعدك. أنا قادرة على ذلك. فكّر في كل من أعرفهم وفي من يعرفون بدورهم. سأساعدك لأنك تشبه أخي فريد، رغم أنك أصغر منه. لم أره منذ تركت البيت في الرابعة عشرة من عمري، حينها كان طوله ستة أقدام وبوصتين. أشقائي الآخرون كانوا في طولك تقريباً، أقزام. إنّها زبدة الفول السوداني ما جعلت فريد

بهذا الطول! كان الجميع يظنونه مجنوناً؛ نظراً للطريقة التي كان يلتهم بها الزّبدة، لم يكن يبالي بأي شيء في هذا العالم إلا الجياد وزبدة الفول السوداني. لم يكن مجنوناً، فقط كان لطيفاً وغامضاً وبطيئاً إلى درجة رهيبة، لقد كان عالقاً في الصف الثامن لثلاث سنوات حين هربت. يا لفريد المسكين! تُرى أيسخو الجيش بزبدة الفول السوداني عليه؟ لقد ذكّرني هذا بأنني أتضوّر جوعاً!»

أشرت إلى جفنةٍ مليئة بالتفاح، وسألتها في الوقت ذاته كيفَ ولماذا غادرت البيت وهي صغيرة جداً؟ حدجتني بنظرة خاوية، وحكّت أنفها وكأنها تداعبه: إيماءة رأيتها تتكرّر كثيراً، وقد صرت أعتبرها إشارةً إلى أنّ شخصاً ما ينتهك خصوصيّتها، مثل كثيرين ممّن لديهم ولع وقح بتبادل الأسرار الحميمة مع الآخرين، وهكذا فإنّ أيًّا كان ما يلوح كسؤال مباشر أو طلبٍ لتفاصيل أكثر، يضعها على أهبة الحذر. قضمت شيئاً من التفاحة وقالت: «احكِ لي شيئاً كتبته، لتكن قصة مثلاً.»

«هذه أحد مشاكلي؛ فما أكتبه ليس من نوع القصص التي تُحكى.»

«هل هي فاحشة جدًّا؟»

«ربما أسمح لك بقراءة إحداها يوماً ما.»

«الويسكي والتفاح ينسجمان معاً، هيئ لي مشروباً يا عزيزي، بعدها بإمكانك أن تقرأ لي واحدة من قصصك.»

كُتّاب قلائل جداً، خاصة هؤلاء الذين لم يسبق لهم النشر، من يُمكنهم مقاومة دعوة لقراءة كتاباتهم بصوت عال. أعددتُ شراباً لنا، وجلسنا في كرسيين متقابلين، ثمّ شرعت في القراءة، كان صوتي يرتعش بمزيج من رهبة المسرح والحماس: كانت قصة جديدة

فرغت منها بالأمس فقط، ولم يكن أمام هذا الشعور بالقصور الذي لا مناص منه وقت لإصلاح شيء. كانت القصة عن معلّمتين تتقاسمان بيتاً، وتنشر إحداهما حين تُخْطَبُ الأخرى شائعات مجهولة حول فضيحة تمسّ الأخرى تحول دون إتمام زواجها. كانت كل لمحة أختلسها من هولّي أثناء قراءتي القصة، تعتصر قلبي. تململت، فتّتت أعقاب السجائر في المنفضة، أنفقت وقتاً طويلاً تحدق في أظافرها متكاسلة، كأنّها تتلهّف لمبرد، والأسوأ، حين بدا أنني قد استحوذت على اهتمامها، كست عينيها برودة مفضوحة، كأنها في حيرة ما إذا كان من الأفضل شراء زوج من الأحذية رأته في فاترينة ما.

سألتني: «هل هذه هي **النهاية**؟» وقد أفاقت، متخبّطة بحثاً عن شيء أكثر تقوله. «أنا طبعاً أحب السحاقيات أنفسهنَ: فهنَّ لا يخفنني أبداً، لكن القصص عن السحاقيات تصيبني بضجر شديد، وأعجز عن وضع نفسي مكانهنَ. صدقني يا عزيزي.» وتابعت: لأنَ حيرتي كانت جليّة. «لو لم تكن تلك القصة عن سحاقيتين من فصيلة الثيران مسترجلتين، **فعن** أي شيء عساها تكون؟»

لم أكن في مزاج يسمح لي باقتراف خطأ قراءة القصة ومضاعفته بتورط أكبر في شرحها. العبث نفسه الّذي قاد لمثل هذا العرض يجبرني الآن على دمغها بالتبلُّد والتباهي والطيش.

وأردفت: «بالمناسبة.. هل حدث **وتعرفت** على أي سحاقية حلوة؟ فأنا أبحث عن رفيقة حجرة. طيب، لا تضحك. أنا فوضوية بشكل مريع، وببساطة لا يمكنني تحمل نفقات خادمة، وفي الحقيقة، السحاقيات ربّات منزل رائعات: فهن يُحببنَ القيام بكل العمل، لن

تُضطرَ للقلق بشأن المِقشّات وإذابة الثلج وإرسال الملابس المتسخة للمغسلة. كانت لدي رفيقة حجرة في هوليوود مثّلت في أفلام رعاة البقر، كانوا يسمونها «الجوّالة الوحيدة»[2] لكنني كنت أقول عنها إنها بمائة رجل. بالطبع لم يتمالك الناس أنفسهم واعتقدوا أنني لابد أن أكون أنا نفسي سحاقية بعض الشيء، وأنا طبعاً كذلك، جميعنا كذلك إلى درجةٍ ما. وماذا في ذلك؟ فلم يثبِّط هذا همّة رجل حتى الآن قط، بل على العكس! يبدو أنّه يحثّهم أكثر. أنظر إلى الجوّالة الوحيدة، لقد تزوّجت مرتين. عادة تتزوج السحاقية مرة واحدة فحسب لأجل الحصول على اللقب. إنهنّ يتحملن تبعات هذا الختم كي يسبق أسماءهنّ فيما بعد لقب «السيّدة». شيءٌ آخر. هذا ليس حقيقياً!» كانت تتفرّس في منبه موضوع فوق الطاولة. «لا يمكن أن تكون الساعة الرابعة والنصف صباحاً!»

كانت النافذة تتحول إلى اللون الأزرق، بينما نسيم الفجر يتقاذف الستائر.

«في أي يوم نحن؟»

«الخميس.»

«**الخميس**، يا إلهي.» نهضت قائمة، ثمّ عادت تجلس مصدرةً أنيناً. «إنّه يوم رهيب.»

كنت مُتعباً بما فيه الكفاية، ففارقني الفضول؛ تمددت فوق الفراش وأغمضت عيني، لكنها كانت ما تزال أخّاذة. «ما هو الرهيب في الخميس؟»

«لا شيء، عدا أنني أفشل في تذكّر متى يأتي. كما ترى، في أيام

---

(2) Lone Ranger: جوّال مُقنّع، بطل عرض إذاعي ومسلسل تلفازي مُبكر عن الغرب الأمريكي. م.

الخميس يجب أن أكون هناك في موعد الانطلاق عند الثامنة وخمس وأربعين دقيقة؛ فهم شديدو التدقيق بشأن ساعات الزيارة، وهكذا إذا ذهبت في العاشرة فكل ما لديك هو ساعة قبل أن يتناول الرجال الفقراء غداءهم. فكّر في ذلك، الغداء في الحادية عشرة. يمكن أن تذهب في الثانية بعد الظهر، وقد فعلت ذلك كثيراً، لكنّه يُفضّل أن يراني صباحًا؛ يقول إن رؤيتي تحسّن مزاجه لبقيّة اليوم. لابد أن أبقى مستيقظة.» وأردفت قولها بقَرْص خديها حتى احمرّا. «لا وقت للنوم، سأبدو مرهقة، وأتداعى كبيوت الفقراء، ولن يكون هذا عادلاً: ألا توجد فتاة تستطيع الذهاب إلى سجن سينغ سينغ بوجه نضر؟» **telegram @soramnqraa**

«أفترض النفي.» كان الغضب الّذي شعرت به تجاهها بسبب ردة فعلها من قصتي ينحسر؛ لقد استولت على مشاعري مجدداً.

«كل الزوار يبذلون قصارى جهدهم ليبدوا في أفضل حالاتهم، وهذا شيء رقيق جدًّا، عذب جدًّا؛ فالطريقة التي ترتدي بها النساء أجمل ما لديهن، أعني النساء العجائز والفقيرات منهنّ أيضاً، يبذلن أغلى ما عندهن لتكون طلّتهن حسنة ورائحتهنّ ذكية هي الأخرى، وأنا أحبهنّ لذلك. أحبّ الأطفال أيضاً، على الأخص الملوّنين منهم، أعني الأطفال الذين تجلبهنّ الزوجات. لابد وأنّه أمر مؤسف، رؤية الأطفال هناك، لكنها ليست كذلك؛ فالشرائط الملونة تزيّن شعرهم، وكثير من اللمعان الذي يبرق من أحذيتهم المصقولة. ستظن أنّهم سيوزّعون الآيس كريم! وهذا ما يجري أحياناً في حجرة الزيارة! احتفال! لكن، على كل حال، الأمر مختلف عمّا يحدث في الأفلام: همسٌ متجهّم عبر حاجز من قضبان حديديّة. ليس

ثمّة قضبان، فقط طاولة بينك وبينهم ويُمكن للأطفال الوقوف فوقها ليُحتَضَنوا، وكل ما يلزم عمله لتُقبِّل شخصاً هو أن تتّكئ على الطاولة. ما أحبّه أكثر هو فرحتهم برؤية بعضهم، وقد ادّخروا الكثير للحديث عنه، لا مكان هنا للفتور، بل ضحك متواصل وأياد تتشبث بأياد. لكن الصورة تتغيّر فيما بعد.» وتابعت: «أراهم في القطار. يجلسون بهدوء، يحدّقون في النهر الذي يمرّ من أمامهم.» شدّت جديلة من شعرها إلى زاوية فمها وقضمتها بتأمّل: «لقد سهرتَ كثيراً بسببي الليلة. فلتنم الآن.»

«أرجوك، لقد أثَرْت اهتمامي.»

«أعرف. لهذا السبب أريد أن تنام؛ لأنني لو تابعت سأحكي لك عن سالي. لست متيقنة إن كان هذا سلوكاً نبيلاً...» ومضغت شعرها صامتة. «لم **يطلبوا** مني قط ألّا أخبر أحداً، ولو مجازًا، وهي حكاية مسليّة، ربما يمكنك صياغتها في قصّة بأسماء مختلفة أو أيّ شيء آخر. أنصِت يا فريد.» وأردفت فيما تتناول تفاحة أخرى. «يجب أن تُقسِم وتُقبّل مرفقك...»

يمكن للبهلوان تقبيل مرفقه، يجوز، لكن الآن لابد لها أن ترضى بتقبيل شيء أقرب!

قالت بفم ملؤه تفاح: «طيب.. ربما تكون قد قرأت عن هذا في الصُحف. اسمه سالفاتوري توماتو، وأنا أتكلم اليديشيّة أفضل ممّا يتكلم هو الإنجليزية! لكنه عجوز حبيب، ورع جدًّا، يبدو مثل ناسك لولا أسنانه الذهبية، يقول أنّه يصلّي لأجلي كل ليلة، طبعاً لم يكن عشيقي قط، وبقدر ما تستمر الحكاية، لم أكن أعرفه على الإطلاق حتى دخل السجن فعلاً. لكنني أهيم به الآن، عموماً أنا

أذهب لرؤيته كل خميس منذ سبعة أشهر، وأظن أنني سأذهب لرؤيته حتى ولو لم يدفع لي. مسألة عاطفية.» وألقت باقي التفاحة خارج النافذة. «بالمناسبة، كنت أعرفه شكلاً، فقد اعتاد المجيء إلى حانة جو بيل والجلوس قريباً من الركن: لا يتكلم مع أحد، فقط يقف هناك، كهؤلاء الرجال الّذين يعيشون في غُرف الفنادق. لكن من المُضحك تذكُّر كيف كان يراقبني عن كثب؛ لأنه بعد أن أرسلوه إلى لسجن مباشرة (لقد أراني جو بيل صورته في الصحيفة. اليد السوداء. المافيا. وكل هذا الهراء: ثمّ أصدروا حكماً بسجنه خمس سنوات) سرعان ما جاءت تلك البرقية من أحد المحامين، كانت تقول بأنّه يجب أن أتصل به فوراً من أجل الحصول على معلومات لمصلحتي. «ظننتِ بالتأكيد أن هناك من ترك لكِ مليون دولارًا!»

«على الإطلاق. بل حسبت أن متجر بيرجدورف يحاول جمع ديونه. لكنني جازفت وذهبت لرؤية ذاك المحامي (هذا لو كان محامياً حقاً، وهو ما أشك فيه؛ فلا يبدو أنّ له مكتباً، يقوم فقط بتوفير خدمة الاستشارات القانونية، وهو دائماً ما يلتقي زبائنه في محل هامبورج هيفن: لأنه بدين ويستطيع التهام عشر شطائر هامبورغر وجفنتين من المُقبّلات وفطيرة ليمون مُحلاة كاملة) سألني أن أُدخِل السرور إلى قلب عجوز وحيد، وفي الوقت نفسه أتقاضى مائة دولار كل أسبوع. قلت له أنظر يا عزيزي، لقد التقيت الآنسة جولايتلي الخطأ؛ لست ممرضة تعقد صفقات على الهامش. لم أكن معجبة بالمكافأة أيضاً، تستطيع كسب مبلغ مماثل لمجرّد الموافقة على مرافقة رجل أنيق [خلال السّهرة]، ولو أقل الأناقة، إلى الحمّام. بل إنه سيدفع خمسين دولاراً لامرأة عاديّة الجمال ثمن رفقتها، ودائماً

ما أطلب شخصيًا أجرة التاكسي أيضًا، وهذه خمسون أخرى. لكنه أخبرني لاحقاً أن زبونه هو سالي توماتو. قال إن سالي العجوز الغالي يُكنّ لي إعجاباً منذ عهد بعيد، من طرف واحد، لذا أليس في زيارته مرّة كل أسبوع صنيع حقيقي أسديه له؟ لم أستطع الرفض: بدا ذلك رومانسياً جداً.»

«لا أدري، لكنه لا يبدو بالأمر الصائب.»

ابتسمَت: «هل تظن أني أكذب؟»

«لسبب واحد، هو أنّهم ببساطة لن يسمحوا لأي أحد بزيارة سجين.»

«أوه .. هم لم يسمحوا لي بذلك، في الحقيقة أثاروا ضجة كبيرة مثيرة للسأم، لذا يُفترض بي الآن أنني ابنة أخته.»

«وسارت الأمور بالسهولة التي تصفينها؟ مقابل حديث يمتد ساعة أعطاكِ مائة دولار؟»

«بل أعطاها لي المحامي، أرسلها السيد أوشانيسي بالبريد نقداً بمجرد أن فرغت من إرسال تقرير الطقس.»

«أظنك معرّضة للوقوع في مشاكل كثيرة.» قلت وأطفأت المصباح؛ فلا حاجة له وقتها، فنور الصباح كان قد دخل الحجرة، وكان الحمَام يهدل فوق سلم الطوارئ.

سألتني بجديّة: «كيف؟»

«لابد من وجود شيء في القانون يخصّ انتحال الشخصية، وقبل أي شيء أنت لست ابنة أخته. وماذا عن تقرير الطقس هذا؟»

تثاءبت. «إنه لا شيء. محض رسالة أمررها لخدمة الاستشارة عبر الهاتف يتأكد من خلالها السيد أوشانيسي أنني ذهبت للسجن،

يخبرني سالي كل مرة بمحتواها، وتكون كلمات من مثل: **ثمّة إعصار في كوبا، أو الثلج يسقط في باليرمو** ...لا تقلق يا عزيزي.» كانت تتجه صوب الفراش. «أنا أعتني بنفسي منذ عهد بعيد.» بدا وكأن ضوء الصباح يتكسّر عليها. جذبت أغطية السرير إلى ذقني، ومضت مثل طفلة شفافة، ثم رقدت بجانبي. «هل تمانع؟ لا أريد إلا أن أرتاح قليلاً. لذا لا تقل كلمة أخرى. نَمْ.»

تظاهرتُ بالنوم، جعلت أنفاسي ثقيلة ومنتظمة. كانت أجراس برج الكنيسة المجاورة تدق كل نصف ساعة. كانت الساعة السادسة عندما وضعت يدها على ذراعي، لمسة رقيقة حريصة على عدم إيقاظي. ثم همست، وقد بدا كأنها تكلمني، لكنّها لم تكن توجه كلامها لي فعلاً.

«يا لفريد المسكين! أين أنت، الجو قارص البرودة، ثمّة ثلج..رياح.»

ثمّ ارتاح خدها على كتفي، خفيفاً دافئاً نديّاً.

«لِمَ تبكين؟»

وثبت للخلف ناهضة. «أوه.. يا ربي.» قالت وانطلقت صوب النافذة وسلم الطوارئ. وأردفت: «كم أكره التطفّل.»

* * *

في اليوم التالي، الجمعة، عُدت إلى المنزل لأجد أمام بابي سلّة بالغة الفخامة من «تشارلز وشركاه» مع بطاقة: الآنسة **هوليداي جولديتلي**، مسافرة. وقد خربشت على ظهرها بخط أخرق غريب كما لو كانت ما تزال في الروضة: **باركك الله عزيزي فريد، أرجوك اغفر لي ما جرى الليلة الماضية، لقد كنتَ ملاكًا في تصرفاتك**

كلّها. بالغ العطف– هولّي. حاشية: **لن أزعجك مرة أخرى**. وقد أجبت، **أرجوك أزعجيني**، وتركت هذه الملحوظة عند بابها مع ما استطعت تدبيره: باقة من البنفسج من بائع في الشارع. لكن بدا جليّاً أنّها عنت ما قالته: فلا رأيتها ولا سمعتها بعد ذلك، وحسبت أنّها وصلت إلى هذا الحد من أجل الحصول على مفتاح الطابق السفلي. على أية حال، هي لم تعد تقرع جرسي، وقد افتقدت ذلك: ومع تلاحق الأيام بدأت أشعر باستياء ما متكلّف تجاهها، كأنّ أعزّ أصدقائي يستخفّ بي، وبدأت وحشة مُقلقة تحلّ في حياتي، إلا أنّها جعلتني أزهد في أصدقاء تجمعني بهم معرفة شخصيّة أطول: تراءوا الآن دون طعم، مثل حِمية خالية من السكّر. مع مجيء يوم الأربعاء، كانت أفكاري حول هولّي وسجن سنغ سنغ وسالي توماتو، وعن عالم يدفع فيه الرجال أكثر من خمسين دولارًا من أجل [الرّفقة إلى] غرفة حمام! قد سيطرت على تفكيري إلى درجة أعاقتني عن العمل. في تلك الليلة تركت رسالة في صندوق بريدها: **غداً الخميس**، وكافأتني في الصباح التالي بورقة كُتب عليها بخطها الطفولي: **باركك الله لأنّك ذكرتني. هل تمانع في مشاركتي الشراب الليلة في السادسة؟**

انتظرت حتى السادسة إلا عشر دقائق، ثم أخّرت نفسي خمس دقائق زيادة.

فتح لي باب مسكنها مخلوق تفوح منه رائحة السيجار وكولونيا نيس. يرتدي حذائين ذوي كعبين عاليّين. ولولا تلك البوصات الإضافية، لاعتبره المرء رجلًا قصيرًا. له رأس بحجم الأقزام، أصلع ويملؤه النمش، وله أذنان مدببتان لجنّي حقيقي، وعينان ضيقتان

خاليتان من الرحمة ومنتفختان بعض الشيء. وقد نبتت خصلات من الشعر من أذنه وأنفه، ونمت لحية ما بعد الظهيرة في خدّيه فكستهما بالشيب. لمصافحته ملمس ناعم بعض الشيء.
«الصبيّة تأخذ حماماً.» قال مشيراً بسيجاره نحو مصدر صوت الماء الذي يهسهس في الغرفة المجاورة. بدت الحجرة التي تسكنها وكأنّها أُخليت من الأثاث للتوّ (كنّا نقف لأنّه لم يكن ثمّة ما نجلس عليه،) وينتابك شعور بأنك على وشك أن تشتمّ رائحة طلاء طري. كانت الحقائب والصناديق المفتوحة هي الأثاث الوحيد هناك، وقد أُستخدمت الصناديق كطاولات، إحداها تحمل زجاجة المارتيني والأخرى مصباحاً وهاتف ليبرتي، وواحدة تحمل هرّ هولي الأحمر ومزهريّة فيها زهور صفراء. تغطّي خِزانات الكتب حائطًا واحدًا يحتوي على نصف رفّ خُصّص للأدب. أبهجتني الحجرة منذ الوهلة الأولى، أحببت طابعها الّذي يشي بالاستعداد للرحيل في أي لحظة.
تجشأ الرجل. «هل أنت على موعد؟»
وجد إيماءتي غير أكيدة، فتفرّستني عيناه الباردتان حافرةً حزوزاً استكشافية مُتقنة في النفس.
«أشخاص كثيرون يأتون هنا، بلا موعد. هل تعرف الصبيّة منذ فترة طويلة؟»
«ليس من فترة طويلة.»
«إذن فمعرفتك بها قصيرة؟»
«أعيش في الطابق العلوي.»
وفّرت له إجابتي تفسيرًا جعله يسترخي. «هل لديك التصميم نفسه

في شقتك؟»

«بل إنها أصغر بكثير.»

نفض رماد سيجاره على الأرضيّة. «إن هذا المكان مزبلة، غير معقول. لكن الصبيّة لا تعرف كيف تعيش حتى لو امتلكت المال.» كان لحديثه إيقاع رنّان متشنّج كأنه جهاز التلكس. «إذن ماذا عنك، هل تظنها كذلك أم لا؟»

«لا ماذا؟»

«زائفة.»

«لا أعتقد ذلك.»

«أنت مخطئ. إنها زائفة. لكن، من جانب آخر، أنت مُحقّ، هي ليست زائفة لأنّها زائفة **حقيقية**؛ فهي تؤمن بكل هذا الهراء الّذي تؤمن به، ولن تفلح في إقناعها بالعدول عن هذا الإيمان، لقد حاولت والدموع تنهمر على وجهي. بينّي بولا، الّذي يحظى باحترام الجميع، حاول أيضًا. خطَر له أن يتزوجها لكنّها لم تحاول اقتناص الفرصة، لقد أنفق آلاف الدولارات تقريبًا لعرضها على أطباء نفسيين، حتى الشهير منهم يا ولدي، الّذي لا يتحدث سوى الألمانية، استسلم. صدّقني، لن تفلح في إثنائها.» وعقد قبضته كأنّه ينتوي سحق شيء غير مرئي «فكرة. حاوِل في وقت ما، اجعلها تروي لك شيئاً من الهراء الّذي تؤمن به. جرّب.» وأردف: «أنا أحبّ الصبيّة، كثيرون يحبونها، لكن ثمّة كثيرون أيضاً لا يُكنّون لها الشعور نفسه. أنا أُكنُّ لها هذا الإحساس، أحبها بصدق. أنا مرهف الحسّ، وهذا هو السبب. ينبغي أن تكون مُرهف الحسّ كي تُقدّرها: نزوة الشّاعر! لكن سأتلو عليك الحقيقة: افعل ما بمقدورك لأجلها، وإن أعطتك

روث الخيول في طبق. مثلاً– من غيرك رآها اليوم؟ إنّها تحديدًا تلك المرأة التي ستقرأ عنها يوماً ما كيف انتهى بها المطاف في قاع زجاجة سيكونال[3]، لقد رأيت ذلك يحدث أكثر ممّا رأيت أنت أصابع قدميك: وهؤلاء الصّبية، ليسوا بحمقى، بل هي الحمقاء.»

«لكنها لا تزال صغيرة، وينتظرها الكثير.»

«إن كنت تعني المستقبل، فأنت تخطئ مجدداً. قبل عامين من الآن، على الساحل، كان ثمّة زمن مُغاير. آنئذ كان لديها من يعمل لأجلها، وكانوا مهتمين بها، وكان من الممكن أن تُسيَّر أمورها حقاً. لكن حين تهجر مهنة كتلك فإنها لا تستطيع العودة إليها. اسأل لويس رينر. رينر كانت نجمة، بالتأكيد، في حين لم تكن هولّي سوى فتاة مغمورة، حتى ذلك الحين لم تكن قد غادرت قسم الصور الدعائية. لكن ذلك كان قبل قصة الدكتور **واسيل**. كان من الممكن أن تنجح. أعرف، إنني أعني ذلك، لأنني كنت الرجل الّذي دعمها..» وأشار بسيجاره إلى نفسه: «أو.جي.بيرمان.»

توقّع مني اهتماماً خاصاً، ولست أمانع ذلك، فقد كانت الأمور على أحسن ما يُرام بالنسبة لي، سوى أنني لم أسمع من قبل قط عن أو.جي.بيرمان. وقد تبيّن فيما بعد أنّه كان وكيل ممثلين في هوليوود.

«أنا أوّل من رآها، في سانتا آنيتا[4]. كانت تتسكّع حول حلبة السباق كل يوم، فثار انتباهي نحوها: مهنيًا. اكتشفتُ أن لديها رفقة مع أحد الخيّالة المحترفين، تعيش مع رجل قصير القامة. قلت له أن يدعها وشأنها إذا لم يكن يرغب في الحديث مع رجال شرطة الآداب: أنظر،

---

(3) حبوب منوّمة. م.

(4) حلبة سباق خيول بالقرب من لوس أنجلوس. م.

البنت في الخامسة عشرة من عمرها. لكنها كانت أنيقة، جذّابة، لا تعثر عليها إلا مصادفة، حتى لو كانت تضع نظارة بذلك السُّمك! أو تفتح فمها ولا تعرف ما إذا كانت ريفيّة أو عاملة زراعيّة مُهاجرة أو ماذا! لا أدري حتى الآن. تخميني أنّه لا أحد سيعرف أبداً أصلها. ما هي إلا كاذبة لعينة. ربما هي نفسها لا تعلم من هي. سوى أن الأمر استغرقنا عاماً كاملاً لصقل مخارج حروفها. وكيف فعلنا ذلك في النهاية؟ أعطيناها دروساً في اللغة الفرنسيّة، وبعد أن تمكّنت من محاكاة نطق الفرنسيّة، لم تستغرق وقتاً طويلاً حتى نجحت في محاكاة النطق الإنكليزي. جعلناها تلبس على نمط الممثلة مارجريت سوليفان، لكنّها تمكّنت من إضافة لمستها الخاصة، فاستحوذت على انتباه المحيطين بها، الكبار منهم، وعلى رأسهم بينّي بولان، الرجل الّذي يحترمه الجميع، أراد بينّي الزواج منها. هل يمكن لوكيل ممثلين أن يطلب المزيد؟ ثم حدث الانفجار المدوّي! **قصة الدكتور واسيل**. هل شاهدت هذا الفيلم؟ سيسل ب. ديميل. جاري كوبر. يا للمسيح. أنا أعذّب نفسي، هل حدث هذا حقّاً: عموماً، هم الآن على وشك اختبارها لمشاهد ممرضة الدكتور واسيل، إحدى ممرضاته. ثم بوم! رنّ التليفون.» والتقط سماعة تليفون وهميّة من الهواء ووضعها على أذنه: «تقول، أنا هولّي، أقول يا حلوتي تبدين بعيدة، وترد أنا في نيويورك، أقول وماذا بحق الجحيم عساك تفعلين في نيويورك إذا كان اليوم هو الأحد ولديك اختبار غداً؟ تجيب أنا في نيويورك لأنني لم يسبق لي أن زُرتها من قبل. قلت ضعي نفسك في أول طائرة وعودي إلى هنا، قالت لا أريد. أقول ما هي وجهتك يا طائشة؟ تقول لقد تدبّرتَ الأمور كي تسير لمصلحتي لكنني لا أرغب في ذلك. قلت

حسنًا، وماذا تريدين بحق الجحيم، قالت حين أكتشف ستكون أول من يعرف. أفهمت ما أعنيه بقولي: روث الخيول في طبق.»

وثب القط الأحمر من فوق صندوقه وحكّ ساقه، فرفعه فوق أصبع حذائه ونقره بحركة مفاجئة. كان يكره ذلك لكنّه بدا واعيًا لاهتياجه فحسب وليس للقط.

«أهذا ما تريده هي؟» قال، مُشيحاً بذراعه. «كثير من الأشخاص غير المتوقع مجيئهم؟ تعيش على الإكراميّات، والتسكّع برفقة الأوغاد. إذن ربما تستطيع الزواج من رستي ترولر؟ لابد أن تمنحها ميدالية من أجل ذلك!»

ترنّث غاضباً.

«آسف. أنا لا أعرفه.»

«إذا كنت لا تعرف رستي ترولر، فأنت لا تعرف كثيرًا عن الصبيّة. معادلة سيّئة» وأردف ولسانه يقرق كصوت الدجاجة داخل رأسه الضخم. «كنت آمل أن يكون لك تأثير على الصبيّة قبل أن يفوت الأوان.»

«لكن حسب كلامك، فقد فات الأوان فعلاً.»

نفخ حلقة من الدخان وتركها تتلاشى قبل أن يبتسم. غيّرت الابتسامة وجهه، ولطّفت الأجواء. «أستطيع أن أجعلها تعود، مثلما قلت لك.» قال وقد بدا الآن صادقاً. «أنا أحبّ الصبيّة بصدق.»

هنا رشّت هولّي الماء داخل الحجرة، تحوطها تقريباً منشفة، فيما تقطر قدماها المُبتلتان الماء تاركةً أثر قدميها على الأرض. «تُرى ما هي الفضائح التي تذيعها يا أو.جي؟»

«المعتاد وحسب، أنّك حمقاء.»

«فريد يعلم ذلك فعلاً.»
«لكنّك لا تعلمين.»
«أشعل لي سيكارة يا عزيزي.» قالت وانتزعت عن رأسها قلنسوة قبعة الحمّام ونفضت شعرها: «لا أقصدك أنت يا أو.جي. فما أنت إلا أخرق، لعابك دائم السيلان.»
حوّطت القطّ بكفيها وأرجحته فوق كتفها، فجثم عليه بتوازن طير، واشتبكت مخالبه بشعرها كأنّها تحيك غزلاً. مع ذلك، وبرغم هذه الألاعيب المتحبّبة، كان قطًّا شرساً بوجه قرصان سفّاح، إحدى عينيه معتمة والأخرى تتألق بالشر.
توجّهت بالحديث إليّ، ملتقطةً السيكارة التي أشعلتها. «أو.جي. أخرق.. لكنّه يعرف عددًا رهيبًا من أرقام التليفونات. ما هو رقم ديفيد أو. سلزنيك يا أو.جي؟»
«مفصول.»
«أنا لا أمزح يا عزيزي. أريد أن تتصل به وتخبره عن نبوغ فريد. لقد كتب كمًّا هائلًا من القصص الأكثر إثارة للدهشة. طيب، لا تستحي يا فريد: أنت لم تقل أنّك نابغة، أنا من قال. هيا يا أو. جي. ماذا لديك لفريد لتجعله ثرياً؟»
«أفترض أنّك ستدعيني أسوّي هذا الأمر مع فريد.»
قالت، وهي تغادرنا: «تذكّر.. أنا وكيلته. شيء آخر: إذا صحت، تعال وشدّ سحّابي، وإذا قرع أحدهم الباب، افتح له.»
وقد فعل كثيرون. ففي خلال ربع ساعة توافد عدد هائل من الرجال إلى الشقّة، عديدون منهم في زيّ رسمي. أحصيت اثنين من ضبّاط البحريّة وكولونيلًا في سلاح الطيران، سوى أنّهم تواروا وراء الحُلل

الرمادية لرجال من رُتَب مختلفة. وباستثناء غياب الشباب، لم يكن بين الضيوف ما يجمعهم، بدوا غرباء بين غرباء. في الواقع، بدا كلّ وجه عند دخوله أنه يكافح لإخفاء رعبه لمرأى الآخرين. كأنّ المُضيفة وزعت دعواتها أثناء جولاتها بين حانات متباينة، وربما كانت تلك هي الحالة؛ فبعد نظرات عابسة مبدئية، امتزجوا دون تذمّر، خصوصاً أو.جي. بيرمان الّذي استغل الرّفقة الجديدة بشراهة لتجنّب مناقشة مستقبلي الهوليوودي. تُركتُ وحيداً مع أرفف الكتب، والتي كان أكثر من نصفها عن الخيول والباقي عن البيسبول. منحني التظاهر بالاهتمام بكتاب "**خيل الركوب وكيف تروّضها**»، فرصة كافية للانفراد من أجل تكوين رأي عن أصدقاء هولِي.

توًّا، صار واحد منهم بارزاً. كان طفلاً في أواسط العمر لم يبذل بعد دهن طفولته. ومع أن خياطاً ما ماهرًا قد نجح تقريباً في تمويه مؤخرته السمينة الصالحة للصفع، فإنّه ما من شكّ بوجود عظم في جسده، ووجهه الخالي من أيّ ملامح منمنمة وسيمة. له سمة عذريّة غير مألوفة: كأنّه وُلِد ثم مُطّ، فبقي جلده دون ملامح كبالونة منفوخة. أما فمه فمع جهوزيته للصراخ وإعلان الغضب، فقد كان ذا تجاعيد لطيفة ومدلّلة. لكن ليس مظهره هو ما يختصّ به دون غيره، فالأطفال المُعتنى بهم ليسوا بهذه الندرة. بل، بالأحرى، سلوكه، فقد كان يتصرّف كأنّ الحفل حفله: كأخطبوط نشط، كان يرجّ زجاجات المارتيني، ويعرّف الضيوف بعضهم إلى بعض، ويدير الفونوغراف. لكن، لتحرّي الصحّة، كانت أغلب جهوده بإملاء من المضيفة نفسها: **رستي هل تمانع، رستي ممكن لو سمحت**.. وإذا افترضنا أنّه مغرم بها، فمن الجليّ أنّه يكبح غيرته:

فأيّ رجل غيور قد يخرج عن شعوره وهو يشاهدها تنزلق بخفّة بين أرجاء الغرفة، تحمل قطّها في يد وتترك الأخرى حرّة لتسوّي ربطة عنق أو تنزع نسالة من طيّة صدر سترة، وكان كولونيل سلاح الطيران يلبس ميدالية في حاجة للتلميع حقاً.

كان الرجل يدعى رذرفورد («رستي») ترولر، فقدَ والديه عام 1908، مات والده ضحية معارض للدّولة، وأمه نتيجة للصّدمة، وهي المحنة المزدوجة التي خلّفت رستي يتيماً، مليونيراً وشهيراً، كل ذلك وهو في سن الخامسة. منذ ذلك الوقت وهو البديل الجاهز في كل ملاحق الصحف التي تصدر أيّام الأحد، وهي العاقبة التي حشدت زخماً كالإعصار حين تسبب، وهو لا يزال تلميذاً، لكفيله القيّم على أملاكه بالاعتقال بتهمة اللّواط. بعد ذلك غذّى صحف الفضائح بسلاسل من الزواجات والطلاقات. فزوجته الأولى سخّرت نفسها ونفقتها كمطلّقة لمنافسة حركة السلام العالميّة الدينيّة[5]. أمّا الثانية فتبدو غامضة. لكن الثالثة قاضته في ولاية نيويورك بحقيبة كاملة من الشهادات التي تستلزم وقف أملاكه. وقد طلّق بنفسه زوجته الأخيرة، مدام ترولر، وكانت شكواه الأساسية قائمة على أنّها قادت تمرّداً بالقرب من يخته، قائلاً إن التمرد تسبّب في إنزالهما في جُزُر دراي تورتوكاز. ومع أنّه ظلّ أعزباً منذ ذلك الحين، فمن الواضح أنّه وقبل نشوب الحرب طلبَ يد يونايتي ميتفورد[6]

(5) Father Divine. م.

(6) أرستقراطية بريطانية كانت صديقة ونصيرة متحمسة لهتلر وأفكاره النازية، وحسب وثائق المخابرات النازيّة فإنّ حاشية هتلر كانت تضم امرأتين انكليزيتين هما ابنتي لورد ريديسدال، إحداهما مدام برايان جينيس التي تحولت إلى حركة القميص الأسود الفاشية التي يقودها سير أوزوالد موزلي في لندن. وقد كانت هي وشقيقتها الصغرى يونايتي ميتفورد شقراوتين جميلتين وتتحدثان الألمانية بطلاقة

للزواج، على الأقل يُفترض أنّه قد أرسل إليها برقيّة عبر التيليغرام يعرض فيها الزواج منها لو أن هتلر لم يفعل بعد! ويُقال إن هذا هو السبب الّذي دعا وينشل للإشارة إليه بالنازي، فضلاً عن حقيقة انكبابه على سباقات السيارات في يوركفيل.

لم يخبرني أحد بهذه الأشياء، بل قرأتها في دليل البيسبول، خيار آخر من رفّ هولي الذي يبدو أنّه يستخدم كسجِلّ قصاصات؛ فبين الصفحات كانت مقالات صُحف الأحد مطويّة سويًّا مع قصاصات مُنتزعة من أعمدة النميمة. **رستي ترولر وهولي جولديتلي معاً فوق الممشى في حفل افتتاح "لمسة واحدة من فينوس"** جاءت هولي من خلفي وأمسكت بي متلبّساً بقراءة: **الآنسة هوليداي جولديتلي، سليلة آل جولديتلي ببوسطن، تجعل من كل يوم عطلة لمدة أربع وعشرين ساعة للثري رستي ترولر.**

«مُعجب بذيوع شهرتي، أم أنك محض هاو للبيسبول؟» قالت، وهي تضبط نظارتها الداكنة كلما نظرت إليّ من فوق كتفي.

قلت: «ماذا كان تقرير طقس هذا الأسبوع؟»

غمزت لي، لكنّها غمزة خالية من روح الدعابة: غمزة تحذير. «أنا مُغرمة حتى النخاع بالخيول، لكنني أشمئزّ من البيسبول.» لكن الرسالة البديلة الكامنة في صوتها كانت تقول أنّها تتمنى أن أنسى أيّ شيء ذكرته بشأن سالّي توماتو. «أكره صوت مبارياته على الراديو، لكنني مضطرة للإنصات؛ فهذا جزء من بحثي. ثمّة أشياء قليلة جداً يسع الرجال للحديث عنها. وحال وجود رجل يكره البيسبول فلابد أنّه يُفضّل الخيل، ولو كان يكرههما معاً، أكون أنا ساعتها في ورطة:

وتستخدمان التحية النازية. لكن الصغرى كانت الأثيرة لدى هتلر لأنّها كانت الأشد إخلاصاً، وقد تناولا الغداء سوياً في مطعم أوستريا كثيراً متى كان هتلر في ميونخ. م.

لأنَه بالتأكيد لا يحبّ النساء! إلامَ انتهيت مع أو.جي.؟»
«افترقنا على اتفاق متبادل.»
«إنّه فرصة، صدقني.»
«أصدقك، لكن ماذا لديّ لأقدمه حتى أقتنص تلك الفرصة؟»
قالت مثابرة: «اذهب إليه وأدْخِل في رَوْعه أن مظهره غير لطيف. يمكنه مساعدتك فعلاً يا فريد.»
«فهمت أنّك لم تقدّريه كثيراً.» بدت مشوّشة إلى أن قلت: «**قصة الدكتور واسيل**.»
«لا يزال متذمّراً.» قالت، وهي ترمي بنظرات حنونة على بيرمان في الطرف الآخر من الحجرة.
«لكن لديه حقّ، لابد أن يراودني شعور بالذنب. لا لأنهم كانوا سيعطونني الدور أو لأنني كنت سأغدو في حال أفضل: ما كانوا ليفعلوا ولا كنت أنا. لو كان لي أن أشعر بالذنب، أظن أن السبب هو أنني تركتهم يحلمون في الوقت الّذي لم يراود خيالي فيه أيّ حلم. أغوتني فقط فكرة إجراء تحسينات على نفسي: كنت أعرف جيداً أنّي لن أكون نجمة سينما. إنّه أمر في غاية الصعوبة. ولو كنتَ ذكيًّا فستجده مُربكاً أيضاً. عُقَدي ليست بالوضاعة الكافية: أن يكون المرء نجم سينما وأن تكون أناهُ متضخمة هما امران يمضيان يداً بيد. في الواقع، من الضروري عدم امتلاك أيّ أنا مطلقاً. لا أعني أنني أُمانع أن أغدو ثريّة أو شهيرة. فجدولي يحوي الكثير من ذلك، ويوماً ما سأحاول الاقتراب منهما، لكن لو حدث فأنا أفضّل أن تلحق أناي بقربي. أريد أن أبقى أنا حين أصحو في صباح جميل وأتناول إفطاري أمام محلّ مجوهرات تيفاني. أنت بحاجة إلى كأس..» وأشارت نحو

يدي الفارغة «رستي، هلّا أحضرت لصديقي شراباً.»
كانت لا تزال تحتضن القط. «ساذج مسكين.» قالت وهي تداعب رأسه... «ساذج مسكين بلا اسم. أمر مزعج قليلاً ألا يكون بلا اسم. سوى أنني لا أملك الحق في منحه اسمًا: سيكون لزاماً عليه الانتظار حتى ينتمي لشخص ما. كأنّ كلانا التقى واحدنا الآخر في جوار نهر ذات يوم، لا أحد منّا ينتمي للآخر: هو حرّ وكذلك أنا. لا أرغب في امتلاك أي شيء حتى أعرف أنني وجدت المكان الذي أنتمي إليه أنا وأشيائي سوياً. لست على يقين أين هو الآن تحديداً. سوى أنّني أعلم كيف يكون.» وابتسمت، تاركةً القط يفرّ إلى الأرضيّة.. «إنّه يشبه محلّ تيفاني. ليس إعجاباً مني بالحُليّ. الماس، بلى. لكنّها بهرجة أن تلبس الماس قبل أن تبلغ الأربعين، وحتى في ذلك العمر فإن في الأمر مُخاطرة. إنّهم يتفرّجون فحسب على العجائز الحقيقيّات. ماريا أوسبنسكايا[7]، تجاعيد وعظام، شعر أبيض وماس: لا أستطيع الانتظار. لكن ذلك ليس السبب في هوسي بتيفاني. اسمع. أنت تعرف تلك الأيام التي تهاجمك فيها النوبات الحمراء الشريرة...»
«أهي كالاكتئاب؟»
قالت ببطء: «كلا.» وأردفت «نوبات الاكتئاب تكون بسبب البدانة أو ربما لأنّها أمطرت لفترة طويلة، وتكون فيها حزيناً، هذا كل ما في الأمر. لكن النوبات الحمراء كريهة، يداهمك الخوف وتعرق كأنّك في الجحيم، دون أن تعرف لماذا تخاف، عدا إحساسك بأنّ سوءاً سيحدث، فقط أنت لا تدري ما هو. هل

(7) مغنية أوبرا روسيّة. م.

جربت هذا الشعور من قبل؟»

«غالباً. بعض الناس يسمونه **حالة خواء**.»

«حسن. حالة خواء. لكن كيف تتصرف حيالها؟»

«قد يُجدي الشراب.»

«جربته. وجربت الأسبرين أيضاً. رستي يعتقد أنني يجب أن أدخن الماريجوانا، وقد جربتها فترة، لكنها جعلتني أقهقه فحسب. اكتشفت أن أكثر الحلول فائدة هو أن أضع نفسي في أول سيارة أجرة وأن أتجه إلى تيفاني. يبُث هذا الأمر السكينة في أوصالي على الفور، الهدوء والإباء الباديان على واجهة المحلّ يبثان الطمأنينة في أوصالك بأنّ ما من سوء يمكن أن يحدث لك هنالك، ليس مع وجود هذه النوعية من الرجال في حُللهم الأنيقة، وتلك الرائحة المُبهجة للفضّة والمَحافِظ المصنوعة من جلد التمساح. لو أستطيع العثور على مكان حقيقي يجعلني أشعر بمثل ما أشعر لدى تيفاني، إذن لاشتريت بعض الأثاث ومنحت القطّ اسماً. لقد فكّرتُ أنّه ربما بعد الحرب، فريد وأنا...» رفعت نظّارتها الداكنة، وقد ازدادت عيناها حدّة في التحديق بألوانها المُختلفة، الرماديات ونُتَف الأزرق والأخضر. «زرتُ المكسيك مرة. بلد رائع لتربية الخيول، رأيتُ هنالك مكاناً بالقرب من البحر.. فريد ماهر في التعامل الخيل.»

جاء رستي ترولر حاملاً كأس مارتيني، ناولني إياه دون أن يعيرني انتباهًا.

«أنا جائع.» قال مُعلناً بصوت متردد كصاحبه، مُصدراً نحيب طفل مثير للأعصاب، وبدا كأنّه يلقي اللوم على هولي. «إنّها السابعة والنصف، وأنا جائع. وأنت تعرفين ما قاله الطبيب.»

«بلى يا رستي. أعرف ما قاله الطبيب.»
«طيب، فضّ الحفل، وهيا نخرج.»
«أريد منك التصرّف بشكل لائق.» كانت تتحدث بنعومة لكن بنبرة تهديد بالعقاب جعلت وجهه يتورّد بوهج من الرضا والعرفان بالجميل.
«أنتِ لا تحبيني.» مُتذّمراً كأنّهما بمفردهما.
«لا أحد يحب «الشقاوة».»
كان من الواضح أنّها قالت ما يرغب في سماعه، وهو ما أثاره وجعله يسترخي في آن، وقد واصل وكأنّها شعائر تؤدّى. «هل تحبيني؟»
ربّتت عليه: «اهتم بما تقوم به يا رستي، وحين أكون جاهزة سننطلق لتناول الطعام في أي مكان تريد.»
«الحيّ الصيني.»
«لكن ألا يعني هذا لحم ضلع الخنزير الحلو الحامض. أنت تعرف ما قاله الطبيب.»
وفيما عاد لمهامه يتهادى راضياً، لم أستطع مقاومة تذكيرها أنّها لم تُجب على سؤاله: «هل تحبينه؟»
«سبق وقلت لك: تستطيع دفع نفسك لحبّ أي شخص. عدا أن لديه عادات طفولية كريهة.»
«إذا كانت كريهة إلى تلك الدرجة، فلماذا يتشبث بها؟»
«أمعن النظر. ألا ترى أن رستي يشعر بأمان أكثر في الحفاضات أكثر مما لو كان يرتدي تنورة؟ وهو خياره حقاً، لكنه شديد الحساسية لهذا الأمر ليس إلا. لقد حاول طعني بسكين الزبد لأنني قلت له أنّه يجب أن ينضج ويواجه الحقيقة، يستقرّ ويعيش مع سائق شاحنة

أبوَيّ لطيف. وحتى يحدث ذلك، سأضعه في عيوني، الأمر الّذي لن يسبّب لي أي مشاكل، فهو غير مؤذٍ، ويعتقد ببساطة أن الفتيات محض دُمى.»

«الشّكر لله.»

«طيب. لو كانت تلك رؤية أغلب الرجال للأمر، سيصعب عليّ شكر الله.»

«أعني الشكّر لله لأنك لن تتزوجي السيد ترولر.»

رفعت حاجباً وقالت: «بالمناسبة، لست أدّعي أنني لا أعرف أنّه ثري. فالأراضي في المكسيك تكلّف مبلغًا وقدره... والآن» وأومأت لي إلى الأمام «هيا بنا نرى أين أو.جي.»

تسمّرت في مكاني بينما أُعمل عقلي بحثًا عن سبب للتأجيل، ثمّ تذكّرت «لماذا **مُسافرة**؟»

بدا عليها الارتباك.

«على بطاقتي؟» وأردفت: «هل تراها مُضحكة؟»

«كلا ليست مُضحكة، إنّما مُستفزّة!»

هزّت كتفيها غير مُكترثة: «على أي حال، كيف أعرف أين سأعيش غداً؟ لذلك طلبت منهم وضع "**مُسافرة**». عموماً، لقد كان طلب تلك البطاقات تبذيراً، عدا أن شعوراً راودني بأنني مدينة لهم بشراء أي شيء ولو بسيط، إنّها من محل تيفاني.» مدّت يدها إلى كأس المارتيني خاصتي، وكنت لم ألمسه، وأفرغته في جوفها على دفعتين، ثمّ أمسكت يدي. «كفّ عن المماطلة، فأنت في سبيلك لكسب صداقة أو.جي.»

طرأت جلبة عند الباب. كانت امرأة شابة قد دخلت كأنّها ريح

هوجاء، حفيف أوشحة وصلصلة ذهب. هتفت وهي تهزّ أصبعاً أثناء تقدّمها «هـ..هـ..هولي..يا لك من مُدّخرةٍ بائسة. تستأثرين بكل هؤلاء الرجال الجذابين وحدك!»

كان طولها يتجاوز الستة أقدام بكثير، تفوق أغلب الرجال الموجودين ارتفاعًا، وما إن رأوها حتى استووا مُعتدلين، شافطين بطونهم. كان ثمّة مباراة شاملة لموازاة طولها المتمايل.

قالت هولي بشفاه مشدودة كوتر مرسوم: ماذا تفعلين هنا؟

«لِماذا، لـ ..لـ ..لا شيء يا سُكّر. كنت في الطابق العلويّ أعمل مع يونيوشي على أشياء تتعلق بعدد عيد الميلاد من مجلة بازار. لكنّك تبدين مُغتاظة يا سُكَر؟» مُخفيةً ابتسامة ماكرة. «ر.. ر.. رجالك ليسوا غاضبين من وجودي في ح..ح.. حفلتك.»

ضحك رستي ترولر ضحكة مكبوتة، واعتصر ذراعها كأنّه يُعلن إعجابه بقوّتها، وسألها إن كانت تحب أن يُعدّ لها شراباً.

«بالتأكيد.. أعد لي كأس بوربون.»

عاجلتها هولي: «لا يوجد بوربون.»

عندئذٍ اقترح كولونيل سلاح الطيران أن يخرج ويشتري زجاجة.

«أوه.. ها أنا أُعرب عن رغبتي بعدم إحداث ضجة. يكفيني ماء النشادر، يا هولي يا عسل.» ثمّ دفعت هولي قليلاً. «لا تقلقي بشأني. أستطيع التعريف بنفسي.» ووقفت قُرب أو.جي.بيرمان، والّذي مثل كثيرين من الرجال قصيري القامة في حضرة امرأة فارعة، ملأت عينيه غشاوة التّوق. «أنا ماج و..و..وايلدوود من وايلدوود في أركانسو، بلد التلال!»

بدا الأمر كرقصة، أدّى خلالها بيرمان بعض حركات القدمين

المتوهَمة ليتّقي سخرية منافسيه اللاذعة، سوى أنّه خسرها لصالح رقصة رباعية بين شركاء التهموا نكاتها المتلعثمة كحبات ذُرة صفراء أُلقيت لحمَام. إنّه نجاحٌ يُمكن فهمه. لقد كانت انتصارًا على القُبح المُسلّي غالبًا أكثر من الجمال الحقيقي، ولو كان انتصارًا بسبب تناقضهما وحسب. وفي حالة ماج وايلدوود، كنقيض للنهج الدقيق المُلازم للذائقة الحسنة الصريحة وأصول التبرج، فقد كانت حيلتها قائمة على المبالغة في إظهار عيوبها: لقد أضفت على نفسها زخرفة بإفساح المجال لعيوبها كي تُطِلّ بجرأة: كعب عالٍ تُشدّد به على طولها، باتت عالية جداً لدرجة ارتجف معها كاحلاها. وصِدار ضيّق مسطّح، في إشارة لقدرتها على ارتياد الشواطئ في لباس الرجال للسباحة. وشعر ملموم للوراء يُبرِز نحول وهُزال وجهٍ يصلُح لعارضة أزياء. حتى التأتأة، الحقيقية بلا ريب، لا تزال مُدبّرة قليلاً، وقد تحوّلت إلى مزية. لقد كانت تلك التأتأة هي الضربة القاضية؛ لأنّها تحتال بها لجعل كلماتها العادية تبدو مُبتكرة بطريقةٍ ما، وثانياً، برغم طولها الفارع ووقاحتها، فقد كانت تُلهِب شعوراً بالحماية لدى مستمعيها من الذكور. من أجل التوضيح: كان على بيرمان أن يتودّد بطريقة أخرى، فما إن قالت:

«من يدلني على م..م..مكان الت.. ت.. واليت؟»

حتى مدّ لها ذراعاً ليرشدها بنفسه.

قالت هولّي «ليس ضرورياً أن تدلّها؛ لقد كانت هنا من قبل، وهي تعرف أين هو.»

كانت تُفرِغ منافض السجائر، وبعد أن غادرت ماج وايلدوود الحجرة، أفرغت منفضة أخرى، ثمّ قالت، أو بالأحرى تنهّدت «إنّه

لأمرٌ مُحزن للغاية.»
توقفت طويلاً بما يكفي لتحسب عدد عبارات الاستفهام، وكانت كافية.
«وغامض جداً. ربما تظن أنّه سينكشّف من جمالها المزيد، لكن الله يعلم، فهي **تبدو** بصحة جيدة. وبالتالي، بلى، **خالية** من الأمراض الجنسية، وهذا هو الجزء الاستثنائي. أليس كذلك؟» وجهت سؤالها الأخير باهتمام، لكن ليس لأحد بعينه.
«ألم تكن لتقل أنت إنّها **تبدو** خالية من الأمراض الجنسية المُعديّة؟» سعل أحد الموجودين، وابتلع كثيرون ريقهم، بمن فيهم ضابط البحرية الّذي كان يحمل كأس ماج وايلدوود، ووضعه الآن جانباً. وأردفت هولّي «سوى أنّني سمعت أن كثيرات من تلكم النساء الجنوبيات تعانين من المشكلة نفسها.» ارتجفت قليلًا، قبل أن تتجه صوب المطبخ كي تحضر مزيدًا من الثلج.
لم تستطع ماج وايلدوود فهم هذا الغياب المباغت للدفء لدى عودتها، كانت الأحاديث التي بدأتها قبل ذهابها للتواليت تسلك الآن مسلكاً يشبه جذوع الشجر الأخضر: تطلق دخاناً دون أن تشعل ناراً. لكن ما لا يُغتفر أكثر من غيره هو أنّهم كانوا يغادرون دون أن يأخذوا رقم هاتفها، وقد فرّ كولونيل سلاح الطيران وهي تدير ظهرها، وهو ما كان بالنسبة لها القشّة التي قصمت ظهر البعير: كان قد طلب رفقتها على العشاء. أعماها الغضب فجأة. وكما ينقلب السحر على الساحر، فيما تغمر الدموع أهدابها، اختفت جاذبيتها على الفور، وأساءت للجميع دون تفرقة. قالت عن مضيفتها أنها «مُنحلّة هوليوود،» ودعت رجلاً في الخمسين للعراك، وقالت

لبيرمان أن هتلر كان على حق، وأبهجت رستي ترولر بأن خنقته بذراعها في ركن، وقالت دون أيَ تأتأة «أتعرف ما سيجري لك؟» وأردفت: «سأجرّك لحديقة الحيوانات وأُطعمك لثور التبت!» بدا مُستعداً بكل جوارحه، لكنها خيّبت آماله حين انزلقت إلى الأرضية، حيث قعدت تهمهم.

قالت هولي وهي تشدّ قفازاً: «أنتِ مُملّة. هيا، انهضي من هناك.» كان الباقون من الحفل ينتظرون لدى الباب، وعندما لم تتزحزح المرأة المُملّة، رمت لي هولي نظرة اعتذار. «هلّا أسديت لي صنيعاً أيها الملاك فريد؟ ضعها في سيارة أجرة وأرسلها حيث تعيش في وينسلو.» «كلا. أعيش في باربيزون، ريجنت بارك، وهاتفي 734-5700. إسألي عن ماج وايلدوود.»

«أنت ملاك يا فريد.»

كانوا قد غادروا. وكان مشهد اصطحابِ أمازونيّة إلى سيّارة أجرة طمس ما كنت أشعر به من استياء أيّا كان. لكنها حلّت المشكلة بنفسها، حين نهضت معتمدة على قواها وتفرّست فيّ بشموخ مُترنّح، وقالت: «هيا بنا إلى نادي ستورك. نلحق منطاداً محظوظاً.» ووقعت على الفور مثل شجرة بلوط قُطعت بفأس. أول ما خطر ببالي هو استدعاء طبيب، لكن الفحص كشف أن نبضها طبيعي وتنفسها منتظم. كانت ببساطة نائمة. وهكذا، بعد أن عثرت على وسادة تضع رأسها عليها، تركتها تخلد للنوم.

* * *

بُعَيد ظهر اليوم التالي، اصطدمت بهولي على الدرَج. «**أنت**» قالت،

بينما تمضي مُسرعةً ومعها لفافة من الصيدلي: «إنّها هناك، على شفير أن تُصاب بالالتهاب الرئوي؛ بينما آثار سُكرها البارحة تطفح الآن، والنوبات الحمراء الشريرة على رأسه.»
استنتجت من كلامها أن ماج وايلدوود في شقتها، سوى أنّها لم تمنحني فرصة لأتحرى تعاطفها المفاجئ هذا. وخلال نهاية الأسبوع، تعمّق اللغز من خلال حدثين. الحدث الأول هو ذاك الرجل اللاتيني الّذي طرق بابي بطريق الخطأ، يستعلم عن الآنسة وايلدوود. واستغرق تصحيح خطأه بعض الوقت؛ فقد بدت لهجتانا مشوشتين بشكل مُتبادل، لكن بعد الوقت الّذي أمضيناه، صرت مفتوناً به. إن له تكوينًا أُعِدَّ بعناية، فرأسه الأسمر وجسده الشبيه بجسد مصارع ثيران كانا متناسقين وناضجين، مثل تفاحة أو برتقالة أو أي شيء آخر طبيعي تامّ الخِلقة. فضلاً عن، وعلى سبيل الزينة، بذلة انجليزية وكولونيا مُنعشة، وما لا يزال غير لاتيني أكثر، أسلوبه الخجول. أمّا الحدث الثاني فقد كان اللاتينيّ متورّطًا به أيضًا، وفي اليوم نفسه. كان الوقت مساءً، ورأيته في طريقي للعشاء في الخارج، وكان السائق يساعده مُترنحاً في حمل حقائب سفر ممتلئة إلى المنزل. منحني ذلك أمرًا ألوكه: ومع مجيء يوم الأحد بات فكّاي مُجهدين تماماً.
ثمّ صارت الصورة أكثر قتامةً ووضوحاً في آن.
كان يوم الأحد يوماً خريفياً جميلاً، والشمس قوية، ونافذتي مفتوحة، وقد تناهت إلى مسامعي أصوات قادمة من سلّم الطوارئ. كانت هولّي وماج تجلسان ممدّدتين هناك أسفل بطانيّة والقط بينهما. شعرهما المغسول لتوه تدلّى مسترسلاً، وبدتا مُنشغلتين،

فبينما كانت هولي تطلي أظافر قدميها، راحت ماج تحيك سترة وتقول «لو سألتني، أظن أنّك م.. م.. محظوظة. على الأقل لديك ما تقولينه بشأن رستي. إنّه أمريكي.»
«مرحى له!»
«**يا سُكّر**. ثمّة حرب دائرة.»
«وحين تنتهي، سأكون قد رحلت.»
«لا أشعر أن الأمور ستنتهي على هذا النحو. أنا ف..ف..فخورة ببلدي. كان رجال عائلتي جنوداً عِظاماً. ثمّة تمثال لبابادادي وايلدوود يقف شامخاً في وسط وايلدوود.»
«فريد هو الآخر جندي. سوى أن شكًّا يراودني في مسألة أن يُقام له تمثال يوماً ما. ربما. يقولون كلما ازددت غباء ازددت شجاعة. وهو غبي جدًّا.»
«فريد، الرجل الّذي يسكن الطابق الأعلى؟ لم أدرك أنّه جندي. لكنّه يبدو غبياً حقاً.»
«يا للشفقة. ليس غبياً. لديه رغبة رهيبة في أن يكون من زمرة المحدقين إلى الخارج: أي امرؤ يحشر أنفه فيما لا يعنيه، وعُرضةً لأن يُرى غبياً. عموماً، فريد هذا يختلف عمّن أعنيه. من أقصده هو فريد شقيقي.»
«تنعتين ل..ل..لحمك ود.. د.. دمك بالغبي؟»
«إذا كان غبياً فهو غبي.»
«إنّها لذائقة سيئة أن تتلفظي بذلك الكلام. إنّه رجل يحارب من أجلك وأجلي وأجلنا جميعاً.»
«ما هذا: خطبة لجمع التبرعات لأجل الحرب؟»

«أردت فقط أن تعرفي موقفي. أنا أُقدّر النكتة، لكن خلاف ذلك فأنا شخصية ج..ج..جادة، أفتخر بكوني أمريكية، لهذا السبب أرثي بشأن خوسيه.» ونحت جانباً إبر الحياكة. «أنتِ تعتقدين حقّا إنّه وسيم جداً، أليس كذلك؟» همهمت هولي، وهي تضرب شاربَي القط بفرشاة الطلاء. «لو فقط أتمكن من التأقلم مع فكرة الز.. ز.. زواج من برازيلي، وأصبح أنا نفسي برازيلية. إنّه وادٍ ضيّق لابدّ من عبوره، أي ستة آلاف ميل، ودون دراية بلغتهم..»

«اذهبي إلى بيرليتز.»

«ولماذا لا يدرّسون البررتغالية؟ كأنّ لا أحد يتكلمها. كلا، فرصتي الوحيدة هي أن أحاول إقناع خوسيه بنسيان السياسة وأن يصير أمريكياً. إنّه لأمر عديم الفائدة للرجل أن يطمح في أن يصبح ر..ر.. رئيساً للبرازيل.» تنهّدت والتقطت ما تحيكه. «لابد أنّني مجنونة بحبه، أنتِ رأيتِنا معاً. هل تظنين أنني مجنونة بحبّه؟»

«هل يَعُضّ؟»

تركت ماج عن غُرزةً كانت على وشك حياكتها، سائلةً: «يَعُضّ؟»

«يَعُضّك. في الفراش.»

«لماذا، لا. هل يجب عليه ذلك؟» ثمّ أسرّت لها: «لكنه يضحك أثناء المعاشرة.»

«ممتاز. هذا ينمّ عن روح صالحة. أحب الرجل الّذي يرى ما في المعاشرة من سخافة، فأغلبهم، بل جميعهم، يلهثون وينفخون.»

سحبَت ماج شكواها، وقبِلت التعليق باعتباره إطراءً ينعكس عليها: «بلى. أتصور ذلك.»

«لا بأس. لا يعُضّ، ويضحك. وماذا أيضاً؟»

أحصت ماج غرزة راحت في الفراغ وبدأت مرة أخرى، تحيك وتطرّز، وتطرّز.

«كنت أقول..»

«لقد سمعتك. وليس الأمر أنني لا أريد إخبارك. لكنه من الصّعب التذكّر؛ فأنا لا أبقى طويلاً في تلك الحالة، كما هو الأمر بالنسبة لك على ما يبدو. فهي تغيب من رأسي كأنّها حلم. وأظن أن ذلك هو الوضع العادي.»

«ربما كان عاديًّا يا عزيزتي، لكنني أريده بالأحرى طبيعيًّا.» توقّفت هولي عن صبغ بقيّة شاربي القط باللون الأحمر، وتابعت: «اسمعي. إذا كنت عاجزة عن التذكّر، جرّبي أن تتركي الأنوار مضاءة.»

«أرجوكِ افهميني يا هولي. أنا شخصية تقليدية جداً.. جداً.. جِداً.»

«أوه، أنتِ عتيقة. ما الخطأ في نظرة مهذبة إلى جسد رجل عار تحبينه؟ الرجال جميلون، كثيرون منهم كذلك، وخوسيه أحدهم، وإذا كنت لا ترغبين حتى في النظر إليه، فاسمحي لي أن أقول إنّه يضاجع طبقًا باردًا جميلًا من المعكرونة!»

«ا..ا..اخفضي صوتك.»

«ليس من المرجح أنك تحبينه. والآن، هل يجيب هذا على سؤالك؟»

«كلا؛ لأنني لست طبقًا باردًا من الم.. م.. معكرونة. أنا امرأة ذات قلب دافئ، وهذا أساس شخصيتي.»

«لا بأس. لديك قلب دافئ. سوى أنني لو كنت رجلاً أنوي معاشرتك، لفضلت أن تكون بالقرب مني قربة ماء ساخنة، سيكون هذا ملموساً أكثر.»

«لن تسمعي أية شكاوى من خوسيه.» قالت شاعرةً بالرضا، فيما

تومض إبرها في ضوء الشمس. وتابعت: «الأكثر من ذلك. **أنا واقعة في غرامه**. هل تعرفين ما يعنيه أن أحيك عشرة أزواج من الجوارب في أقلّ من ثلاثة أشهر؟ وها هي السترة الثانية.» وفردت السترة ثم نحتها جانباً. «ما المغزى من ذلك؟ سترات في البرازيل. لابد أن أحيك بدلاً منها قبّعات تقي من الش.. ش.. شمس!»

استلقَت هولي وتثاءبت: «لابد من مجيء الشتاء في وقت ما.»

«إنّها **تُمطر**، أعلم ذلك. حرارة شديدة ومطر وأ.. أ.. أدغال.»

«حرارة شديدة وأدغال. في الحقيقة أحبّ هذه الأجواء.»

«هي أفضل لك أكثر ممّا هي لي.»

ردّدت هولي وهي تتناوم: «بلى.. أفضل لي أكثر ممّا هي لك.»

* * *

صبيحة الاثنين، نزلت لأرى بريد الصباح. كانت البطاقة على صندوق هولي قد أُبدلت وأُضيف اسم: الآنستان جولايتلي وايلدوود مسافرتان الآن **سوياً**. ربما كان هذا الأمر ليستحوذ على اهتمامي فترة أطول لولا رسالة وجدتها في صندوقي، كانت من دورية صغيرة تصدر من جامعة كنت قد أرسلت لها واحدة من قصصي. أحبّوها، مع ذلك يجب أن أتفهّم أنّهم لن يستطيعوا دفع مقابل لنشرها، فهم يعتزمون ذلك. نشر: يعني طباعة. دوّختني الإثارة، فهي ليست محض عبارة. لا بدّ أن أخبر أحداً: وهكذا، صعدت السلالم قافزًا درجتين درجتين، قرعت باب هولي.

لم أثق في قدرة صوتي على إعلان الأنباء: بمجرد أن بلغت الباب، دفعت الرسالة إليها، وكانت تغالب نعاسها. غابت طويلاً وكأنّها تقرأ

ستين صفحة قبل أن تُعيدها مرة أخرى، وتقول متثائبة: «ما كنت لأدعهم ينشرونها، إذا لم يدفعوا.» يجوز أن وجهي أفصح عن أنّها أساءت فهم الموقف، وأنني لست في حاجة إلى النُصح، بل التهنئة: فقد تغيّرت ملامحها من التثاؤب إلى الابتسام. «أوه، أنا أعي ذلك. رائع. طيب، تعال أدخل.» وتابعت: «سنُعدّ قِدرَ قهوة ونحتفل. كلا. بل سأرتدي ملابسي ونخرج للغداء سوياً.»

كانت غرفة نومها متّسقة مع ردهة شقتها: فهي تكرّس جو الحياة نفسه داخل مُخيّم؛ أقفاص وحقائب سفر، وكل شيء محزوم وجاهز للرحيل، كأغراض مجرم يشعر أن يد العدالة ليست بعيدة عنه. لم يكن ما في الرّدهة أثاث مألوف، لكن غرفة النوم كان فيها السرير نفسه، السّرير الواسع. وكان مُبهرجان حقاً: له خشب أصهب ومسند رأس مبطّن ومغطّى بالسَاتان.

تركَت باب الحمام مفتوحاً، وتحدّثت من هناك بين الاغتسال بالماء المتدفق ودعك الأسنان. كان أغلب ما قالته مشوشاً، سوى أن جوهر الكلام كان عن: إنّها تفترض علمي بانتقال ماج وايلدوود للعيش معها، وهل ذلك ملائم؟ لأنّك لو كنت مُتخذاً رفيقة في السكن، وفي حال ما إذا كانت غير سحاقيّة، فثاني أفضل خيار هو أن تكون مُغفَلة صرفة، وهو ما كانته ماج؛ لأنّه يسعك حينها التخلّص من الإيجار على حسابها وإرسالها بالملابس المتّسخة للمغسلة.»

يمكن للمرء تبيُّن أن لدى هولي مشكلة غسيل: كانت فملابسها مبعثرة فوق كل شبر من الحجرة، كأنّها جمنازيوم للفتيات.

«... وكما تعرف، فهي تعمل موديلاً وناجحة جداً: أليس ذلك

رائعاً؟ هو كذلك.» خرجت تعرج من الحمام وهي تُثبّت رباط جورب، وتابعت: «من شأن هذا أن يُبقيها بعيدة عني طيلة اليوم، ولن تكون ثمّة منافسة على الرجال؛ فهي مخطوبة لرجل وسيم، أيضاً. مع ذلك ثمّة اختلاف ضئيل في الطول، بقياس قدم واحدة، وه تحب ذلك... أين بحق الجحيم ذاك ال..» كانت منكفئة على ركبتيها تفتش تحت السرير. بعد أن وجدت ما كانت تبحث عنه، حذاءَ ليزارد، راحت تبحث عن بلوزة وحزام، وكان هذا موضوعاً للتأمّل، كيف تؤلف من هذا الحُطام شكلها النهائي: النقاء الرصين المشبع، كأنّها خضعت لعناية وصيفات كليوباترا. قالت: «اسمع..»، وكوّبت كفها أسفل ذقني.«أنا سعيدة بقصتك. سعيدة بحقّ.»

* * *

هو ذاك الاثنين من شهر أكتوبر عام 1943. يوم جميل تملؤه بهجة الطيور، بدأناه بارتشاف كوكتيل مانهاتان في حانة جو بيل، الذي دعانا لدى سماعه الأنباء السعيدة إلى شرب كوكتيل شمبانيا في المنزل. لاحقاً، تسكّعنا صوب الجادة الخامسة حيث يجري استعراض عسكري. تراءت الرّايات التي تطوّحها الرياح، وتناهى الإيقاع الثقيل الذي تعزفه الفرق والأقدام العسكريّة، وكأنّ لا شأنّ لها بالحرب الدائرة أكثر ممّا كانت لحنًا قصيرًا بالبوق يُعزف على شرفي الخاص.

تناولنا الغداء في كافيتريا في السنترال بارك. ثمّ، متحاشين المرور بحديقة الحيوان (كانت هولي تقول إنّها لا تُطيق رؤية كائن ما كان حبيس قفص) قهقهنا، ركضنا، وغنينا طوال الطريق إلى المرفأ

الخشبي القديم الّذي اختفى الآن. كانت أوراق الأشجار طافية فوق مياه البحيرة، وعلى الشاطئ كان حارس الحديقة ينفخ ناراً مضطرمة بتلك الأوراق، فيما كان الدخان يتصاعد مثل إشارات هنديّة، والضباب يتراقص في الهواء. لم تكن شهور أبريل تعني كثيراً بالنسبة لي قط، فيما تتبدّى لي فصول الخريف مواسماً لبعثٍ جديد، كان الربيع هو ما شعرته لدى جلوسي بالقرب من هولي فوق سياج شرفة المرفأ. فكّرت بالمستقبل، وتكلّمت عن الماضي؛ لأن هولي أرادت التعرّف على طفولتي. كانت قد تكلّمت عن طفولتها أيضاً، سوى أنّها كانت طفولة مراوغة لا اسم لها ولا مكان، بل محض سرد لانطباعات مُغايرة لما قد يتوقعه المرء، حكايا ملؤها بهجة للحواس عن السباحة والصيف، وأشجار عيد الميلاد، وأبناء عمومة وُسماء، وحفلات... باختصار، سعادة لم تذقها، كما لم تكن قط، يقيناً، تجربة بنت فرّت من منزلها وهي لمّا تزل بعد صغيرة. بمعنى آخر، سألتها، أليس حقيقياً أنّها هجرت منزل الأسرة واعتمدت على ذاتها مُذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها؟ فحكّت أنفها. «بلى. ما حكيته كان زيفاً. لكن لعلمك يا عزيزي، لقد جعلت من طفولتك مأساة لم أرغب في منافستها.»

قفزت عن السياج. «عموماً، لقد ذكّرني الأمر بضرورة أن أبعث إلى فريد بعضاً من زبدة الفول السوداني.» قضينا بقيّة الأصيل ننقّب شرقاً وغرباً بين دكاكين بقالة المعلّبات عن زبدة فول سوداني، كنّا نُجاب بالنفي بسبب نقص المؤن وقت الحرب، وقد حطّ الظلام قبل أن نتمكن من جمع نصف دزّينة من عُلَب الزبدة، وقد عثرنا على آخر علبة منها في دكان يهوديّ في الجادة الثالثة، بالقرب من

متجر أنتيكات يعرض في الفاترينة قفصَ طيور على هيئة قصر، فأخذتها إلى هناك لتراه، فأعجبتها غرابة تصميمه، غير أنها قالت: «لكنه يَظلّ قفصاً.»

تشبثت بذراعي لدى مرورنا على متجر وولورث[8]. «هيا نسرق شيئاً.» قالت وهي تجرّني إلى داخل المتجر، ليتراءى لنا على الفور أن العيون المُحدّقة بنا كأنّها تصرّ على ذلك، وكأننا كنّا موضع شبهات حقاً. «هيا.. لا تخف.» راقبتُ منضدة تكدّست فوقها أوراق مزركشة على شكل يقطينات، وأقنعة عيد القديسين. كانت موظفة المبيعات مشغولة بمجموعة من الراهبات كنّ يجرّبن الأقنعة؛ فالتقطت هولي قناعاً ولبسته خلسة، اختارت قناعاً آخر ووضعته على وجهي، ثمّ أمسكت يدي ومشينا خارجين. جرى الأمر بتلك البساطة. في الخارج، ركضنا متجاوزين عدّة بنايات، لإضفاء مزيد من الدراما ربما، لكن أيضاً بسبب بهجة السرقة الناجحة، كما اكتشفت لاحقًا. تساءلت إذا ما كانت تسرق كثيراً. قالت: «إحدى عاداتي.. أعني كنت أضطر لو احتجت شيئاً، سوى أنني ما أزال أفعل ذلك بين الحين والآخر، فاليد الخطّاءة نجسة.»

ارتدينا القناعين طيلة الطريق إلى المنزل.

* * *

هنالك ذِكرى تجمعني بهولّي هنا وهناك لأيام كثيرة. حقاً، رأى الواحد منّا كثيرًا من الآخر في لحظات عديدة. لكن، بصفة عامة، إنها ذكريات زائفة. كنت قد عثرت في نهاية الشهر على وظيفة بدوام

---

(8) سلسلة متاجر تقدّم حسومات انتشرت في أنحاء الولايات المتحدة في القرن العشرين. م.

كامل: أ ثمّة ما يُقال أكثر؟ ما قلّ ودل، عدا أن العمل كان ضرورياً ويدوم من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءاً، وهو ما جعل ساعات يومنا، هولي وأنا، مختلفة لأبعد حدّ.

نادرًا ما تكون مستعدّة حين أجيء إلى شقّتها، باستثناء يوم الخميس، يوم سينغ سينغ، أو أنني لا أجدها لأنها مضت إلى المتنزّه لركوب الخيل، وهو ما كانت تفعله بين الحين والآخر. أحياناً، متوقفاً هناك، أشاركها قهوتها المُنبّهة فيما تتزيّن استعداداً للسّهر. كانت باستمرار تستعد للخروج، ليس برفقة رستي ترولر دائماً، إنّما في الغالب، وفي الغالب أيضاً، يكونان برفقة ماج وايلدوود والبرازيلي الوسيم خوسيه إبارّا ييجار: كانت أمّه ألمانيّة. وكلحن رباعي، كانوا يعزفون نوتة تعوزها الهارمونيّة، في المقام الأول كان النشاز يتمثّل في إبارّا ييجار الّذي بدا غريبًا في رفقتهم، مثل كمانٍ في فرقة جاز. كان ذكيّاً، بهيّ الطلعة، وقد بدا وثيق الصِلة بعمله الّذي كان مُتعلّقاً بالحكومة على نحو غامض، مبهم الأهميّة، ويحمله على قضاء بضعة أيام أسبوعيًّا في واشنطن. إن المرء ليعجب كيف، بعدئذٍ، يقدر على البقاء ليلة بعد ليلة في الشارع في La Rue El Morocco منصتاً ل.. ل.. لماج وايلدوود ومحدّقاً في وجه رستي الطفولي الأبله الأشبه بردفين؟ ربّما، مثل كثيرين منّا في بلد أجنبي، كان عاجزاً عن تصنيف النّاس، وانتقاء إطار لكلّ منهم، كما قد يفعل في وطنه، ومن ثمّ لابدّ وأنّ كل الأمريكيين قد خضعوا للتقدير على قدم المساواة بتأثير نور جذّاب، وعلى هذا الأساس يتضح أن رفاقه نماذج مقبولة من اللون المحلي والشخصيّة القومية. ربما يفسّر هذا الكثير. أمّا إصرار هولي على الخروج برفقتهم فيفسّر الباقي.

كنتُ أنتظر باص الجادة الخامسة في وقت متأخر من بعد ظهر يوم ما، حين لاحظت سيارة أجرة تتوقف عند الجانب الآخر من الشارع ريثما تهبط فتاة صعدت درج المكتبة العامة في شارع 42 جرياً. كانت قد عبرت الأبواب قبل أن أتعرّف عليها، وهو ما يمكن غفرانه؛ لأنَّ إقامة علاقة ما تربط هولي بالمكتبات ليس بالأمر اليسير. تركت الفضول يقودني بين الأسدين[9] أفكّر ما إذا كان الأفضل أن أعترف بأني ألاحقها، أم أدّعي أنّها صدفة. في النهاية لم أفعل لا هذا ولا ذاك، بل أخفيت نفسي على بُعد عدّة طاولات منها في حجرة القراءة العامة، حيث جلست وراء نظّارتها الداكنة وكومة ضخمة من الأدب حشدتها فوق المنضدة. كانت تتنقّل بسرعة من كتاب إلى آخر، وتتريّث قليلاً بين الحين والآخر عند صفحة، ودائماً عابسة، كأنّ الصفحات مطبوعة بشكل مقلوب. كانت تمسك بيدها قلم رصاص يراوح فوق ورقة– وقد بدا أن لا شيء استرعى خيالها، وراحت أحياناً، وكأنّها لا تهتمّ للأمر كثيرًا، تدوّن بعض الخربشات، بهدوء. ذكّرتني رؤيتها بفتاة كنت أعرفها في المدرسة، الكادحة ميلدريد غروسمان: بشعرها النديّ ونظّارتها الزلقة، وأصابعها المبقعة التي شرّحت ضفادع وحملت القهوة لخطوط الإضرابات، بعينيها المنطفئتين اللتين لا تلتفتان إلا للنجوم فحسب، لحساب حمولتها الكيمياوية! إن الأرض والهواء لا يسعهما أن يكونا أكثر تناقضاً من ميلدريد وهولّي، برغم ما يقرّ في رأسي من أنّهما توأمتان سياميّتان، وقد جرى خيطُ الفكرة التي رتقتْهما سوياً على هذا النحو: إن الشخصيّة العاديّة تتشكّل بصورة متكررة كل عدّة سنوات، حتى

(9) تمثالان لأسدين يحرسان مدخل مكتبة نيويورك العامة. م.

أجسادنا تخضع للمراجعة الكاملة– مرغوبةً كانت أم لا؛ فالتغيير أمر طبيعي. حسنٌ، لدينا هنا شخصيّتان ما كانتا لتتغيرا، وهو ما تشترك به ميلدريد غروسمان وهولّي جولايتلي: إنّهما لن تتغيرا أبداً لسبب بسيط هو أنّهما مُنحا شخصياتيهما للتوّ، الأمر الّذي– كثراء مباغت– يؤدي لافتقار الاتساق: واحدة تحاول لفت الأنظار إليها كواقعيّة من الوزن الثقيل، والأخرى خياليّة غير متزنة. تخيّلتهما في مطعم في المستقبل، ما تزال ميلدريد تدرس القائمة وتحسب القيمة الغذائيّة لكل صنف منها، وهولّي أيضاً ما تزال نهمة لكلّ ما فيها. لن يختلف الأمر عن ذلك أبداً. ستمشيان عبر الحياة والموت بالخطوات العازمة نفسها والتي لا تلقى بالاً للمنحدرات على جانبي الطريق. استغرقتني تلك الأفكار العميقة إلى درجة جعلتني أنسى أين أنا وما جئت لأجله، وأفقت لأجد نفسي في ظلمة المكتبة، واندهشت مجدداً لرؤية هولي هنا. كانت الساعة قد جاوزت السّابعة، بينما هي تُعيد وضع أحمر شفاهها وتتأنّق معدّلةً مظهرها، ليكون صالحاً لمكتبة، عبر ارتداء وشاح وبعض الأقراط إلى جانب ما تعتبره ملائماً لملهىً كولونيّ. حين غادرَت، اتّجهت صوب المنضدة حيث بقيت كتبها، فقد كنت أرغب برؤيتها. «**جنوباً برفقة طائر الرّعد**». «**خبايا البرازيل**». «**العقل السياسي لأمريكا اللاتينية**». وهلمّ جرا.

عشيّة عيد الميلاد، أقامت هولّي وماج حفلاً، وطلبت هولي مني الحضور باكراً للمعاونة في تزيين شجرة العيد. لا أزال إلى الآن أجهل كيف ناورتا لإدخال تلك الشجرة إلى الشقّة، فالأغصان العلويّة منها كانت مسحوقة بالسقف، والسفليّة تمتدّ من الجدار

إلى الجدار. لم تكن تختلف إجمالاً عن شبيهتها العملاقة في روكفلر بلازا، وعلاوة على ذلك، زُيِّنت بطريقة تحتاج معها إلى ركوفلر الثريّ نفسه ليدفع قيمتها؛ فقد أُغرقت شجرة هولّي بالدمى وأشرطة الزينة كثلجٍ ذائب. اقترحت هولي أن تخرج إلى متجر وولورث وتسرق بعض البالونات، وقد فعلت، ونجحنا في صنع شكل مناسب للشجرة. أعددنا نخباً لأجل عملنا، وقالت هولي: «اذهب إلى غرفة نومي؛ ثمّة هديّة لأجلك.»

كنت أحمل هديةً لها أيضاً: لفافة صغيرة في جيبي تضاءلت أكثر حين رأيته متربّعاً على الفراش، وملفوفاً بشريط أحمر: قفص الطيور الجميل.

«لكن هولي! هذا كثير!»

«لا أستطيع إلا موافقتك على ذلك، لكنني فكّرت أنك ترغب به.»

«لكن ثمنه! ثلاثمائة وخمسون دولاراً!»

قالت مُستهجنة: «مجرّد بضع زيارات إضافية لحجرة التواليت! لكن عدني، عدني ألّا تضع فيه مخلوقاً حيّاً أبداً.»

بدأت أقبّلها، سوى أنّها مَدّتْ يَدها قائلةً: «هات.» ونقرت النتوء البارز في جيبي.

قلت: «أخشى ألّا يكون بالشيء الكثير.» وقد كان: ميداليّة القديس كريستوفر، لكنها على الأقل من متجر تيفاني.

لم تكن هولي بالمرأة التي تقدر على الاحتفاظ بشيء، ومؤكّد أنّها الآن قد أضاعت تلك الميدالية، ربما تركتها في حقيبة أو درج فندق ما. لكن قفص الطيور لا يزال معي؛ حملته بمشقّة إلى نيو أورليانز ونانتوكت، وكل أنحاء أوروبا، والمغرب وجزر الويست إنديز، رغم

أنّني نادراً ما أتذكّر أن هولّي هي من أهدته لي؛ لأنّني عند نقطة معينة اخترت أن أنسى: كنّا قد تعاركنا، ومن بين الأمور التي تعاقبت في بؤرة إعصارنا كان قفص الطيور وأو.جي.بيرمان وقصتي التي أهديت لهولّي نسخة منها منشورة في اليونيفرسيتي ريفيو.

كانت هولي في أحد أيام فبراير قد خرجت في رحلة شتويّة برفقة رستي وماج وخوسيه إبارّا بيجار، وقد نشبت مشادّتنا فور عودتها. كان لونها بنيّاً مثل اليود، وقد ابيّض شعرها بفعل الشمس واستحال إلى لون شبحي، لقد أمضت وقتاً ممتعًا.. «أول شيء فعلناه... ذهبنا إلى جزيرة كي ويست، وقد أثار رستي حفيظة بعض البحّارة، أو العكس، على أيّ حال سيتعيّن عليه ارتداء دعامة لعموده الفقريّ ما تبقّى له من عمر. الغالية ماج، انتهى بها الأمر في مستشفى أيضاً؛ حروق من الدرجة الأولى. صارت مقزّزة: تغطيها البثور وزيوت نبات الإذخر لدرجة لم نُطِق معها تحمّل رائحتها. وهكذا، غادرتُ وخوسيه إلى هافانا. طلب مني التمهّل ريثما أرى ريو، لكن لو أن الأمر لي لتركت هافانا تبتلع نقودي لفورها! رافقنا دَليلٌ سياحيّ محترف، يغلب على شكله العِرْق الزنجيّ وممزوجًا بعِرْق صينيّ، وفيما استبقيت نفسي على مسافة واحدة منه ومن خوسيه، غير أن تركيبته كانت جذّابة على نحو رائع: فتركته يداعب ركبتيّ بركبتيه تحت الطاولة، لأنّي بصراحة لم أجده مُبْتَذلاً على الإطلاق. لكن، في ليلةٍ تالية، اصطحَبَنا لمشاهدة فيلم إباحيّ، وخمّن ما رأيناه؟ لقد كان **هو** بطل الفيلم! حين عدنا إلى كي ويست، كانت ماج مؤمنة تمامًا بأنني قضيت وقتي كلّه أضاجع خوسيه. وكذلك رستي: لكنّه لم يُعر الأمر اهتمامًا. كان يريد سماع

التفاصيل فحسب. في الحقيقة، كانت هناك أجواء مشحونة بالتوتر إلى حدٍ ما، حتى صارحت ماج بشكل حميم.»

كنّا في الحجرة الأماميّة، حيث، وبرغم أن شهر مارس كان على الأبواب، وجدنا شجرة عيد الميلاد الهائلة وقد استحال لونها إلى البنيّ، وصارت دون رائحة، وباتت بالوناتها الضامرة كضروع بقرة عجوز، لا تزال تشغل أغلب المكان. وثمّة قطعة أثاث بارزة قد أُضيفت للحجرة: سرير عسكريّ متحرّك. وهولي، في سعيها للحفاظ على مظهرها الاستوائيّ، استلقت تحت أشعّة الشمس.

«وأقنعتها؟»

«أنّي لم أضاجع خوسيه؟ يا ربي، أجل. لقد قلت لها ذلك ببساطة– سوى أنّك تعلم: لابد أن يبدو ما أقوله اعترافًا مُبَرّحًا– فقلت لها أنّي سحاقيّة.»

«لابد أنّها لم تصدّق.»

«اللعنة. لماذا إذن برأيك ذهبَت واشترَت السرير العسكريّ هذا؟ دعها لِي: فأنا دائماً الرأس الكبيرة في قسم الصدمات. كن لطيفًا يا عزيزي ودلّك ظهري ببعض الزيت.» تابعت، فيما أفي بهذه الخدمة «أو.جي.بيرمان هنا في المدينة، اسمع، لقد أعطيته قصّتك المنشورة في المجلة. لقد أثارت إعجابه جداً، وهو يظن أنّك ربما تستحق العون. لكنّه يقول إنّك في المضمار الخطأ. زنوج وأطفال: من يهتم؟»

«ليس هذا رأي السيد بيرمان حسب ظنّي.»

«طيب. أنا أتفق معه. لقد قرأت القصّة مرتين. صبيان وزنوج. أوراق مرتعشة. تصوير. هذا لا يعني شيئاً.»

تراءى لي أنّ كفّي، فيما تدلّك جسمها بالزيت، كأنّها تنساب من تلقاء نفسها: فهي تتلهّف لإثارة ما، ودّت لو ترتفع لتهوي صافعةً مؤخرتها. لكنني قلت بهدوء: «أعطني مثالاً لأمر يعني شيئاً في رأيك.»

قالت دون تردّد: «مرتفعات وذرنج.»

كانت الإثارة في كفّي قد جاوزت حدّ السيطرة. «لكن هذا غير معقول. أنتِ تتحدثين عن عمل عبقري.»

«هو فعلاً كذلك، أليس كذلك؟ حبيبتي كاثي الجامحة. يا ربي، لقد بكيت دموعًا تملأ دلاءً. لقد شاهدته عشر مرات.»

قلت: «آه». بارتياح واضح، آه بتغيّر عال مفضوح في طبقة الصوت: «الفيلم.»

تحجّرت عضلاتها، وصار ملمسها يشبه حجراً سخّنته الشمس. «لابد أن يشعر المرء بالتعالي على شخص ما. لكنّ العادة جرت على تقديم إشارة قبل أن تنال هذا الامتياز.»

«أنا لا أقارن نفسي بك أو ببيرمان. لذلك لا أحسّ بهذا التعالي. كلٌّ منا يريد أشياءَ متباينة.»

«ألا ترغب في كسب المال؟»

«لم أضع هذا في حسباني إلى الآن.»

«هذا هو حال قصصك. كأنّك كتبتها دون أن تعرف النهاية. لا بأس، سأقول لك: يجدر بك أن تكسب نقوداً. لديك مخيّلة غالية. لن تجد كثيرين يهدونك أقفاص طيور.»

«معذرة.»

«ستعتذر حقًّا لو كنت قد صفعتني! لقد وددتَ ذلك منذ دقيقة: شعرت بذلك في يدك، وأنت تودّه الآن.»

أردت ذلك فعلًا؛ قلبي مضطرم، ويدي ترتعش فيما أعيد غطاء قنينة الزيت. «آه لا. ما كنت لآسف على ذلك. أنا آسف فحسب لأنك أضعت نقودك عليّ: فرستي ترولر طريقة عسيرة للغاية لكسب هذا المال.»

هنا، جلست على حافة السرير العسكريّ؛ قابلتني بوجهها، وثدييها العاريَين المكسوّين بزُرقة باردة في نور الشمس. «من المفترض أن تحتاج إلى أربع ثوان لتمشي من هنا إلى الباب. سأهبك ثانيتين.»

* * *

صعدتُ مباشرةً إلى شقّتي، أخذتُ قفص الطيور، ونزلت به لأتركه أمام بابها. بهذا تعادلنا، أو هكذا تخيّلت حتى الصباح التالي حين، وفيما أغادر للعمل، رأيت القفص قابعًا في صندوق مهملات على الرصيف ينتظر الزبّال. باستحياءٍ ما، أنقذت القفص وحملته عائداً إلى حجرتي، كان إذعاناً لا يُقلّل من تصميمي على إخراج هولي جولايتلي نهائيًا من حياتي. لقد باتت بالنسبة لي «استعراضيّة فجّة» و«مُضيّعة للوقت» و«زيفًا خالصًا»، شخص لن أخاطبه مرة أخرى أبداً.

ولم أفعل، على الأقل ليس لفترة طويلة. كنّا نمرُّ متجاورين بالدَرَج بعيون مطأطئة. كانت إذا دخلت حانة جو بيل من باب، أخرج من باب آخر. لكن عند نقطةٍ ما، مرّرَتْ مدام سافيا سبانيلا، مغنية الأوبرا المتحمّسة للتزلّج والتي تعيش في الطابق الأوّل، التماساً بين ساكني بناية الطوب الأحمر الآخرين طالبةً منهم الانضمام إليها لطرد الآنسة جولايتلي: كانت، حسب مدام سبانيلا، «كريهة

أخلاقياً» و«مسئولة عن الإعداد للحفلات الليلية التي تهدّد سلامة واستقامة جيرانها». لكن رغم رفضي التوقيع، كنت أشعر بيني وبين نفسي أن مدام سبانيلا لديها الحقّ في الشكوى. في النهاية فشلت في تحقيق مرادها، ومع انتهاء شهر أبريل وبشائر مايو، توهّجت ليالي الربيع الدافئة، المفتوحة النوافذ، بصخب الحفلات وصوت الفونوغراف العالي وضحكات المارتيني المنبعثة من الشقّة رقم 2.

لم يكن أمرًا جديداً أن ألتقي نماذج مشبوهة بين زائري هولي. بل على العكس تماماً. لكن يوماً ما، في نهاية ذاك الربيع، وأثناء مروري بمدخل البناية، رأيت بطرف عيني رجلاً مثيراً للاستفزاز يتفحّص صندوق بريدها. كان في أوائل الخمسينيات من عمره ذو وجه متحدّر قاس، تتوسّطه عينان رماديّتان بائستان، وقد ارتدى قبّعة رماديّة عتيقة لطّخها العرق، وبدت بذلته الصيفيّة الرخيصة باهتة الزُّرقة، مفرطة في الاتساع بالنسبة لهيكله النحيل. أمّا حذاؤه فكان بنيّاً وجديداً بلمعته. بدا كأنّه لا يُعير اهتماماً لمسألة رنّ جرس هولي، وببطء، كأنّه يقرأ بطريقة بريل، واصل بإصبعه حكّ الكتابة المزخرفة لاسمها عن الصندوق.

ذلك المساء، وفي طريقي لتناول العشاء خارجًا، رأيت الرجل مجدداً. كان يقف في الجهة المقابلة من الشارع، مستنداً إلى شجرة ويحدّق في نوافذ هولي، الأمر الّذي دفع الأفكار المشئومة للتزاحم في رأسي. هل هو مُخْبِر؟ أو وسيط من عالم الجريمة على صلة بصديقها سجين سينغ سينغ، سالي توماتو؟ أنعش الموقف مشاعري العطوفة تجاه هولي، كان الوقت مناسباً لإنهاء حالة العداء التي دامت طويلاً، وذلك بحجّة تحذيرها أنّها مُراقبة. شعرت بتركيز الرجل مسلّطاً

عليّ، وأنا أمشي قاصداً ناصية الشارع شرقاً صوب محل هامبورغ هيفن في تقاطع الجادة التاسعة والسبعين مع شارع ماديسون. وفورًا، دون أن ألتفت، عرفت أنّه يُلاحقني. كنت أستطيع سماعه يصفّر لحناً، ليست مقطوعة عادية، بل إنها لحن البراري الحزين الّذي تعزفه هولي أحياناً على القيثار: **لا أريد النوم، ولا أريد الموت، يكفيني السّفر عبر مراعي السماء**. تواصل الصفير عبر جادة بارك وحتى شارع ماديسون. مرّة، وأنا أنتظر أن يتبدّل لون إشارة المرور، شاهدته بطرف عيني وقد انحنى ليداعب كلبَ بوميرانيان رخيص، مخاطباً صاحبه بلهجة ريفيّة متشدّقة، وبصوت أجشّ: «يا له من حيوان رفيع الشّأن، هذا الّذي تقتنيه.»

كان محل هامبورغ هيفن خالياً من الزبائن. ومع ذلك، اختار مقعداً بجواري على المنضدة الطويلة. فاحت منه رائحة التبغ والعرق. طلب فنجان قهوة، لكن حين جاء لم يلمسه، بل راح يلوك عود تخليل أسنان فيما يدرسني عبر مرآة الحائط المقابلة.

قلت، أخاطبه عبر المرآة: «عفواً.. لكن ماذا تريد؟»

لم يربكه السؤال؛ بل بدا كأنّ سؤالي قد أزاح عبئًا عن كاهله، وقال: «أنا بحاجة لصديق، يا بني.»

ثمّ أبرز حافظةً بالية كيديه النحيلتين، مكرمشة تقريباً، وكذلك كانت الصورة الفوتوغرافيّة الضبابيّة المكسّرة الهشّة التي ناولها لي. كان ثمّة سبعة أشخاص في الصورة، يحتشدون جميعاً خلف الشرفة المنخفضة لمنزل خشبي مُقفر، وكذلك الأطفال، عدا الرجل نفسه الّذي أحاط ذراعه بخصر فتاة صغيرة ممتلئة شقراء تحجب بكفها أشعة الشمس عن عينيها.

أشار لنفسه، قائلاً: «هذا أنا.. وهذه هي..» ونقر فوق الفتاة الممتلئة. «وهذا الآخر هنا..» مشيراً لصبيّ أشقر فارع الطول: «هذا شقيقها، فريد.»

تأمّلتها مرّة أخرى: بلى، الآن أراها، صورة جنينيّة من هولي الطفلة الممتلئة الخدود الحولاء! وفي اللحظة نفسها، أدركت ما يجب أن يكونه الرجل.

«أنت والد هولّي.»

طَرّف وعَبَس. «اسمها ليس هولي، بل لولاماي بارنز...»

قال، مُنقّلاً عود تخليل الأسنان في فمه. «... أو هكذا كان اسمها إلى أن تزوّجتني. أنا زوجها، دوك جولايتلي، طبيب خيول، أرعى الحيوانات وأقوم أيضاً ببعض أعمال الفلاحة أحيانًا. بالقرب من تيوليب بولاية تكساس. لماذا تضحك يا ولدي؟»

لم يكن ضحكاً حقيقياً: بل هستيريًا. جرعت بعض الماء وشرقت؛ فدقّ على ظهري. «صهٍ يا ولدي؛ فهذه ليست مسألة هزليّة. أنا رجل مُجْهَد. منذ خمس سنوات وأنا أفتّش عن امرأتي، وبمجرّد أن جاءني هذا الخطاب من فريد، والّذي دلّني على مكانها، حتى اشتريت تذكرة لركوب إحدى حافلات جرايهوند، كي أعيد لولاماي إلى بيتها مع زوجها وأطفالها.»

«أطفال؟»

«هؤلاء أطفالها.» قال، صائحاً تقريباً. كان يعني الوجوه الأربعة الصغيرة الأخرى في الصورة، بنتان حافيتان وولدان يلبسان أردية العمل. طبعاً، كان الرجل مُختلاً.

«لكن مُحال أن تكون هولي أمَّ هؤلاء الأطفال؛ فهُم أكبر منها سنّاً

وحجماً.»
أجاب بصوت متعقّل. «الآن يا ولدي.. أنا لا أدّعي أنهم أطفالها الّذين ولدتهم طبيعياً؛ فأمهم الغالية، زوجتي الحبيبة، حفظ الله روحها، ماتت في الرابع من يوليو، يوم الاستقلال، عام 1936 . عام الجفاف. وحين تزوّجتُ لولاماي، وكان هذا في ديسمبر 1938، كانت ابنة أربعة عشر ربيعاً. يجوز أن المرء العادي، حين يكون في الرابعة عشرة من عمره، لا يتمتع برجاحة العقل المفترضة. سوى أن لولاماي كانت امرأة استثنائيّة. كانت تعي جيداً ما تفعل حين وعدت أن تصبح زوجتي وأمّ أطفالي. لقد حطّمت قلوبنا حقّاً حين هربت.» **telegram @soramnqraa**
رشف قهوته التي بردت، وألقى نظرة سريعة عليّ بحثاً عن علامات جديّة.
«الآن يا ولدي، هل تشكّ في حديثي؟ هل تصدّقني؟»
صدّقته. كان عسيراً ألا أصدّقه، فضلاً عن تماشيه مع وصف أو.جي.بيرمان لهولّي التي صادفها أوّل مرّة في كاليفورنيا «**لا تعرف ما إذا كانت ريفيّة أم عاملة زراعيّة مُهاجرة أم ماذا**» لا يمكن إلقاء اللوم على بيرمان لأنّه لم يخمّن أنّها زوجةٌ طفلة من تيوليب في تكساس!
«لقد حطمت قلوبنا حقّاً حين هربت.» قال طبيب الخيول مردداً، وتابع: «لم يكن ثمّة سبب يدفعها لذلك. بناتي كُنّ يؤدين الأعمال المنزليّة. كانت تعيش حياة سهلة: تتمارك وتغسل شعرها أمام المرايا. كانت يا ولدي تنعم برغد حقيقيّ في العيش حتى صارت سمينة: بقراتنا وحديقتنا ودجاجنا وخنازيرنا، كذلك صار شقيقها

فريد الّذي بات عملاقاً. أحوالهما هذه تخالف تمامًا الصورة التي رأيناهما عليها أوّل مرة. تلك ابنتي الكبرى، نيلّي، كانت هي من أدخلتهما المنزل. جاءت لي ذات صباح وقالت: «بابا، لقد حبستُ صغيرين طائشين في المطبخ، أمسكت بهما في الخارج يسرقان الحليب وبيض الفراخ الروميّة.» تلك حقيقة لولاماي وفريد. باختصار، لن ترى أبداً من هو أحقر منهما. ضلوعهما بارزة في جميع أنحاء جسديهما، وسيقانهما سقيمة بالكاد يقفان عليها، وأسنانهما مخلخلة تعيقهما عن المضغ. إن قصّتهما كالتالي: ماتت أمهما بالسلّ وكذلك أبوهما وكل أخوتهما، الأسرة برمّتها؛ فأُرسلوا للتقلّب في العيش مع ناس أشرار مختلفين. وقتها، كانت تعيش لولاماي وشقيقها برفقة أناس ما أشرار تافهين على بُعد مائة ميل شرق تيوليب. وكان لديها سبب وجيه للهرب من ذاك المنزل، وهو ما لم يكن لديها حين هربت من منزلي. لقد كان بيتها.» استند بمرفقيه على الطاولة وضغط عينيه المغمضتين برؤوس أصابعه، وتنهّد: «لقد سمنت لتصير امرأة حقيقيّة جميلة. نابضة بالحياة. تتحدث كطائر صدّاح، لديها شيء ذكي تقوله في كل موضوع: أفضل من المذياع. كنت في بادئ الأمر.. أنت تعرف، أخرج لأقطف لها الزهور. وقد روّضت لها غراباً وعلّمتُه أن يصيح باسمها. علّمتها كيف تعزف على القيثار. إن مجرّد رؤيتها كانت تجعل الدموع تثب إلى مقلتيّ. وفي الليلة التي اعتزمت فيها طلبها للزواج، كنت أبكي كطفل. قالت «لماذا تبكي يا دوك؟ سنتزوّج، طبعاً لم يسبق لي الزواج من قبل قط!» لا بأس، كان لابد أن أضحك، أحضنها وأعتصرها: «**لم يسبق لها الزواج من قبل قط!**» ضحك، ماضغاً عود تخليل الأسنان لبرهة،

ثمّ تابع بلهجة باتت تحتدّ: «لا تقل لي أن تلك المرأة لم تكن سعيدة. كلنا شغفنا بها. لم يكن عليها أن ترفع أصبعاً إلا لتأكل جزءاً من فطيرة، أو لتمشّط شعرها أو تُرسل أحدًا في طلب كلّ المجلات. لابد وأن لدينا ما قيمته مائة دولار من المجلات في المنزل. تسألني، هذا ما فعلَتْه. تحدّق في صور تتباهى بجمالها، وأعمدة تفسير الأحلام. كان الأخير ما جعلها تدوس الطريق، كانت في كل يوم تمشي أبعد قليلاً: مِيْلٌ واحد ثمّ تعود إلى البيت، بعدها ميلان ثمّ تعود، حتى جاء يوم مشت فيه ولم تعد.» غطّى بكفيّه عينيه مرة أخرى، وقد ارتفع صوت تنفسه بشكل مخيف. «الغراب الّذي أهديته لها طار بعيداً، وفي كل صيف أسمعه: في الفناء، والمزارع، والغابات، كل صيف، يصيح هذا الطائر اللعين في كل مكان: لولاماي، لولاماي.» ظلّ محنيًا وساكتًا، كأنّه يجترّ صوت الصّيف البعيد. حملت فاتورة الحساب إلى أمين الصندوق، ولحقني بينما كنت أدفع. غادرنا سويًا ومشينا حتى جادة بارك. كان مساءاً بارداً معبأً بالهواء، وراحت المظلّات الأنيقة ترفرف بفعل النسيم. استمرّ الصّمت بيننا حتى قلت: «لكن ماذا عن شقيقها؟ ألم يرحل؟»

ردّ، مُنقياً حنجرته. «لقد ظلّ فريد معنا حتى استدُعي إلى الجيش. إنّه صبيّ رائع. وهو ماهر في الجياد، لكنّه لم يكن يعرف ما يعتمل في داخل لولاماي، كيف استطاعت أن تهجر شقيقها وزوجها وأطفالها. وبعد أن التحق بالجيش، مع ذلك، بدأت أخبارها تبلغ فريد، وفي اليوم التالي كتب لي عنوانها. وهكذا، جئت من أجلها. أعلم أنّه يتألم لما فعلته، وأعلم أيضاً أنّها ترغب في العودة.» بدا لي كأنه يطلب مني موافقته الرأي. قلتُ له أني فكّرت أنّه ربما يجد

هوليَ، أو لولامايَ، مختلفة بعض الشيء. قال، وكنّا قد بلغنا درجات بناية الطوب الأحمر: «اسمع يا ولدي، لقد أطلعتك على حاجتي كصديق؛ لأني لا أرغب في مفاجأتها، أو إرعابها. لذلك نأيت بنفسي. كن صديقي: وأخبرها أني هنا.»
إن لفكرة تقديم مدام جولايتلي لزوجها جوانبها المُرضية. تمنّيت، وأنا ألقي نظرة خاطفة على نافذتها المضيئة، أن تكون برفقة أصدقائها؛ فربما أشهد المصافحة التكساسيّة مع ماج ورستي وخوسيه الّذي لا يزال أكثر إرضاءً. لكن عيني دوك جولايتلي الأبيتين الجادتين وقبعته التي بقّعها العرق، جعلتني أشعر بالخجل من نفسي لمثل تلك الأفكار. تبعني داخل البيت واستعد للانتظار في أسفل الدَّرَج. «هل أبدو بشكل جيّد؟» همس، نافضاً أكمامه، شادًّا عُقدة ربطة عنقه.
كانت هولي بمفردها. فتحَت على الباب على الفور. في الحقيقة، كانت في طريقها للخروج– بحذاء رقص خفيف أبيض مصقول وكميّات مرشوشة من العطر دلّت على نيّة باحتفال صاخب. قالت، وهي تضربني خفيفاً بمحفظة نقودها مداعبةً: «لا بأس، يا خائب.» وتابعت: «لكنني في عجلة شديدة من أمري وليس لديّ وقت للصّلح الآن، سوف «ندخّن الغليون»في الغد. حسن؟»
«طبعاً، يا لولاماي. إذا مكثتِ هنا للغد.»
خلعت نظارتها الداكنة وحدّقت إليّ بعينين نصف مغمضتين. كانت ألوان عينيها وكأنها تشظّت، وصارت النقط الزرقاء والرمادية والخضراء ككسرات مهشّمة من الشّرر.
قالت بصوت ضعيف مرتعش: «هو أخبرك باسمي؟» وتابعت:

«آه، أرجوك، أين هو؟»

ركضت تتجاوزني إلى الردهة، وصاحت إلى أسفل الدرج: «فريد! فريد! أين أنت يا حبيبي؟»

تناهى إلى مسامعي صوت خطى دوك جولايتلي يصعد الدَرَج. ظهر رأسه فوق السياج، وتراجعت هولي بعيداً عنه، ليس عن خوف، ولكن كأنّها تنسحب إلى داخل قوقعة من الإحباط. ثمّ توقف أمامها، مستكينًا وخجولاً. وقد استهلّ اللقاء بقوله: «يا الهي، لولاماي.»

بدا متردداً أمام تحديق هولّي فيه بوجه خالٍ من التعبير، وكأنّها عاجزة عن التعرّف عليه. تابع: «رفقاً يا حبيبتي، ألا يطعمونك هنا؟ لقد نحلت للغاية، صرت أشبه بأوّل مرة رأيتك فيها. لقد غارت عيناكِ كثيرًا.»

تلمّست هولي وجهه، وتحقّقت أصابعها من حقيقة وجود ذقنه ولحيته القصيرة الخشنة، ثمّ قالت برقّة: «أهلاً دوك.» وقبّلت خدّه. ثمّ كرّرت ذلك بسعادة، فيما رفعها عن الأرض في عناق طويل. وهزّته شهقات ضحك نمّ عن ارتياح: «مرحى لولاماى. أن الدنيا لا تسعني.»

لم يلتفتا إليّ حين عبرت من جانبهما وصعدت إلى غرفتي، ولم يبدو عليهما الانتباه لمدام سافيا سبانيلا، التي واربت بابها وهتفت: «اخرسا! يا له من عار، اذهبا ومارسا عهركما بعيداً!»

* * *

«طلّقته؟ طبعاً لم أطلّقه قط، لقد كنت في الرابعة عشرة ليس إلا،

عافاك الله. لا يُعقل أن يكون هذا زواجًا شرعيًا.» نقرت هولي فوق كأس مارتيني فارغ، وتابعت: «اثنان آخران يا عزيزي سيد بيل.»
جو بيل، الذي كنّا نجلس في حانته، لبّى الطلب على مضض، وقال متذمّراً فيما يقرمش دواءه المهدّئ للمعدة: «تصخبين وتتصرفين بطيش منذ الآن، وما يزال الوقت باكرًا.»
لم نكن قد بلغنا منتصف اليوم بعد، حسب الساعة المصنوعة من خشب الماهوغني الأسود المُعلّقة خلف طاولة البار، وكان قد دار علينا بالفعل بثلاثة كؤوس لكلينا.
قالت: «لكنه الأحد، سيد بيل، والساعات بطيئة أيّام الأحد. فضلاً عن أنّي لم أدلف لفراشي حتى الآن.» ثمّ أفضت إليّ: «لم أنَمْ.» واحمرّت خجلاً فاستدارت شاعرةً بالذنب. لأوّل مرة منذ عرفتها، تتراءى لي شاعرةً بالحاجة لتبرئة نفسها: «بلى، كان لابد أن نمارس حُبّاً. دوك يحبني فعلاً، وأنا أحبّه. ربما بدا عجوزاً رثّاً لك، لكنك لا تعرف مدى عذوبته، والثقة التي يمنحها للطيور والأطفال، والأشياء الهشّة المماثلة. وأيما امرؤ منحك ثقة، فأنت مدين له بالكثير. إنني أذكر دوك دائماً في صلواتي. أرجوك كفّ عن تكلّف الابتسام!» وأتبعت طلبها باستخراج سيجارة: «أنا **أؤدي** صلواتي.»
«أنا لا أتكلّف الابتسام، أنا أبتسم؛ فأنت أكثر شخص مدهش على وجه الأرض.»
«أفترض ذلك.» قالت وقد شحب وجهها، أو بالأحرى اكتسب مظهراً مرضوضاً في نور الصّباح، لامعاً، وصففت شعرها الأشعث وقد سطعت ألوانه مثل إعلان شامبو. «لابد أنّي أبدو رديئة، لكن من منّا ليس كذلك؟ لقد أمضينا بقيّة الليلة نجول حول محطّة

الباص. وحتى اللحظات الأخيرة كان دوك يظن أني سأعود برفقته، رغم مصارحتي له بالحقيقة «لكن، دوك، لم أعد في الرابعة عشرة، ولست لولاماي.» سوى أن الجزء المفزع (وقد أدركته حين كنّا نقف هناك) هو أنا. لا زلت أسرق بيض الفراخ الروميّة وأهرب عبر رُقعة بريّة. الآن فحسب أدعو ذلك معاناة النوبات الحمراء.»

وضع جو بيل كؤوس المارتيني الجديدة أمامنا بازدراء. «لا تعشق أبداً شيئاً جامحاً، يا سيد بيل.» نصحته هولي، وتابعت: «لقد كان هذا هو خطأ دوك. كان يجرّ دائماً للديار أشياء جامحة. صقر بجناح مجروح. مرّة جاء بوَشق ناضج بساق مكسورة. لكنّك لا تستطيع منح قلبك لمخلوق جامح: إذ كلّما أعطيته أكثر، زادت قوّته، إلى أن يصل إلى نقطة معيّنة يصير عندها قويًا بما يكفي للهرب إلى الغابات، أو الطيران فوق شجرة، ثمّ إلى شجرة أعلى، ثمّ إلى السماء، وتصير تلك نهايتك يا سيد بيل. لو أحببت شيئاً جامحاً، سينتهي أمرك إلى التحديق الدائم في السماء.»

«لقد سكرتِ.» قال جو بيل.

أقرّت هولي: «أجل، إلى درجة ما.» وتابعت: «لكن دوك عرف ما أعنيه، لقد شرحت الأمر له بعناية، وكان شيئاً يستطيع استيعابه. تصافحنا وواصلنا سيرنا وتمنّى لي حظّاً سعيداً.» وألقت نظرة على الرصيف، ثمّ تابعت: «لابد أنّه في الجبال الزرقاء الآن.»

سألني جو بيل: «عمّا تتحدث؟»

رفعت هولي كأس المارتيني خاصتها: «هيّا نرجو له حظّاً طيباً أيضاً» ولمست بكأسها حافة كأسي: «حظّاً طيباً، وصدّقني أيها العزيز دوك— إنّه لمن الأفضل التحديق في السماء على العيش هناك، في مثل هذا

الخلاء، المبهم جداً، محض بلاد ترعد وتختفي فيها الأشياء.»

* * *

ترولر يتزوّج للمرّة الرابعة. كنت في قطار أنفاق في مكان ما من بروكلين حين قرأت هذا المانشيت. الصحيفة التي تصَدّرها هذا العنوان تخصّ راكباً آخر، والجزء الوحيد من النص الّذي تمكّنت من قراءته هو: **رزرفورد "رستي" ترولر، المليونير اللعوب الّذي كثيراً ما أُتهم بالولاء للنازيين، فرّ إلى جرينيتش برفقة حسناء ...**—لم يكن ذلك ما أردت قراءته بأي شكل. إذًا تزوّجته هولي: حسناً، حسناً. تمنيت لو دهسني القطار، سوى أنّي كنت أتمنى ذلك قبل أن تقع عيناي على الصحيفة؛ لعدد من الأسباب، منها: أنّي لم أرَ هولي منذ يوم الأحد الّذي جمعنا ونحن نسكر في خمّارة جو بيل، أمّا الأسابيع التي تلت ذلك فقد عانيت خلالها من حالتي الخاصّة من النوبات الحمراء الشريرة. فقد طُردت من عملي: وكنت أستحق ذلك بسبب جُرم مُسلٍ بسيط، لكنّه معقّد بحيث يتعذّر سرده هنا. من جانب آخر كانت قُرْعة تجنيدي لا تبشّر؛ وبالنظر إلى أنني للتوّ هربت من النظام الصارم لبلدة ضيّقة، فقد كانت فكرة دخول شكل جديد من الحياة المنضبطة تصيبني بالإحباط. وفي ظلّ الضبابيّة الّتي اكتنفت موقفي من التجنيد ونقص خبرتي النوعيّة، لم يتراء في الأفق قُرب حصولي على وظيفة. هذا ما كنت أفعله في قطار الأنفاق في بروكلين: العودة من لقاء مثبّط مع مُحرّر الصحيفة التي انقرضت الآن، PM. كل هذا مجتمعاً مع حرارة المدينة في الصيف، أجبرني على الخضوع لنوبة كسل عصبية. وهكذا، كنت أعني ما

قلت بدرجة كبيرة حين تمنّيت أن يدهسني قطار، وقد زاد المانشيت رغبتي تلك؛ فإذا كانت هولي قادرة على الزواج من هذا «الجنين السخيف»، إذن فربما يزحف فوقي جيش الضّلال المنتشر في العالم. أو، والسؤال هنا واضح، هل إن جزءًا من غضبي نابع من كوني أنا نفسي صريع هوى هولي؟ يجوز، لأنّي **كنت** أحبُّها، فقط كما هو الأمر مع طاهية أمي، الكهلة الملوّنة، وساعي البريد الّذي سمح لي بمرافقته في جولاته، وعائلة كاملة كان اسمها ماكّيندريك. فهذا النوع من الحب يولّد الغيرة، أيضاً.

اشتريت نسخة من الصحيفة حين بلغت المحطة، وقرأت بقيّة الجملة؛ لأكتشف أن عروس ترولر كانت: **فتاة غلاف حسناء من تلال أركنسو هي الآنسة مارجريت تاتشر فيتسو وايلدوود**. ماج! ترنّحت ساقاي ارتياحاً، فاستقليت سيارة أجرة بنحو المنزل.

هناك، اصطدمت بمدام سافيا سبانيلا في الردهة، بعينين مسعورتين تلوّح بيديها أن: «أركض»، وتابعت: «أحضر الشرطة، إنّها تقتل أحداً! إن أحداً يقتلها!»

بدا الأمر حقيقياً. كأنّ نموراً طليقة في شقّة هولي. صخب زجاج يتهشم، واندفاعات عنيفة وسقوط وأثاث ينقلب. لكن لم يكن ثمّة أصوات عراك بين الضجيج، ما جعله يبدو غير طبيعي. عادت مدام سبانيلا تصرخ بي وهي تدفعني دفعاً: «أركض.. أخبر الشرطة أن ثمّة جريمة قتل تحدث!»

ركضت، لكن إلى الطابق الأعلى، إلى باب هولي. وقد تمخّض قرعي العنيف للباب عن نتيجة واحدة: همد الصخب. توقف تماماً. لكن كل حججي من أجل السماح لي بالدخول راحت سُدى، كذلك

جهودي لكسر الباب كبّدتني كتفاً مكدوماً فحسب. ثمّ تناهى إلى سمعي صوت مدام سبانيلا في الأسفل وهي تأمر قادماً ما جديداً أن يذهب طلباً للشرطة، سوى أن القادم صرخ بها: «صهٍ! أغربي عن وجهي.»

إنه خوسيه إبارّا بيجار. كان مظهره أبعد ما يكون عن دبلوماسي برازيلي أنيق، بل يغمره العرق والخوف. أمرني بإفساح الطريق له، أيضاً. و، مستخدماً مفتاحه، فتح الباب. قال: «من هنا دكتور غولدمان.» مُشيراً لرجل يرافقه.

ما من أحد اعترض طريقي؛ ولهذا تبعتهما إلى داخل الشقّة التي كانت مُحطّمة بشكل مروّع. على الأقل، كانت شجرة عيد الميلاد مُفككة، بمعنى الكلمة: كانت فروعها البنيّة الجافة متناثرة وسط فوضى كُتب ممزقة، مصابيح وتسجيلات فونغراف مكسورة. حتى الثلاجة كانت مُفرّغة، وقد طُرِحت محتوياتها أرضاً في كل أرجاء الحجرة: بيض نيئ يغطي الجدران، وفي غمرة هذا الحطام كان قط هولّي الّذي لا يحمل اسماً يلعق بركة من الحليب، بهدوء.

في حجرة النوم، كممت أنفاسي اتقاءً لرائحة عطور هولّي التي تصاعدت من زجاجاتها المحطمة. دست على نظارة هولّي الداكنة، كانت مُلقاة على الأرض، وقد تهشمت عدستاها فعلاً، وتحطّم إطارها لنصفين.

يجوز أنها، لهذا السبب، كانت جسداً متخشّباً في الفراش، تحدّق في خوسيه بصورة عمياء وكأنّها لا ترى الطبيب الّذي دندن وهو يقيس ضغطها. «أنت شابة مجهدة. مجهدة جداً. وفي حاجة ماسة للنوم. أليس كذلك؟ نامي.»

حكّت جبهتها، تاركةً مسحة من دم نزف من أصبع مجروح. قالت: «أنام.» ونشجت كطفل مُشاكس مُنهك. «هو الوحيد على الإطلاق الّذي من شأنه أن يسمح لي.. يسمح لي بمعانقته في الليالي الباردة. رأيتُ مكاناً في المكسيك، مليئًا بالجياد، بمحاذاة البحر.»

«مليئًا بالجياد، بمحاذاة البحر.» قال الطبيب مهدهداً، وهو يختار من حقيبته السوداء حقنةً تحت الجلد.

تجنّب خوسيه رؤية الإبرة بحساسية. ثم سأل: «مرضها محض أسى؟»

كانت إنجليزيته الصعبة تضيف للسؤال تهكماً غير مُتعمّد: «حزينة وحسب؟»

قال الطبيب مستفسراً، فيما يربّت على ذراع هولّي بقطعة من القطن: «لم توجِعك بتاتًا، هل فعلت؟»

اقتربت بقدرٍ كاف من الطبيب، ورددت: «**كل شيء** يوجع. أين نظارتي؟»

لكنها لم تكن في حاجة إليها: فقد أغمضت عينيها طوعاً.

كرر خوسيه بإصرار: «حزينة وحسب؟»

كان صبر الطبيب قد نفد فقال: «أرجوك يا سيدي، دعني وحدي برفقة المريضة.»

انسحب خوسيه من الحجرة، حيث صبّ انفعالاته المشحونة على الوجود المُتلصّص لمدام سبانيلا: «لا تلمسني! وإلا استدعيت الشرطة.» قالت مُنذرة فيما تتراجع نحو الباب أمام سبابه البرتغالي. رأيته يفكر في طردي أنا الآخر، أيضاً، أو هكذا ظننت من سحنته. لكنه بدلاً من ذلك دعاني للشراب. كانت الزجاجة المكسورة الوحيدة

التي وجدناها تحتوي على دراي فيرموث. قال مُفضياً لي: «ينتابني شعورٌ بالقلق... ينتابني شعورٌ بالقلق من أن ينجم عن هذا الأمر فضيحة. تحطيمها كل شيء. التصرف كالمجانين. لا ينبغي أن تطالني فضيحة عامة؛ فاسمي وعملي بالغا الدّقة.»

بدا مبتهجاً لقولي أنّي لا أرى سبباً لـ «فضيحة»، تُضرّ بممتلكات المرء الخاصة؛ يُفترض أنّها مجرد علاقة خاصة.

كرر بحزم: «مسألة حزن فقط.» وتابع: «حين جاء الخبر، قذفت أولاً بالكأس من يدها، والزجاجة، وتلك الكُتب، والمصباح. ثمّ شعرتُ بالخوف فهرعت لإحضار الطبيب.»

كنت أريد أن أعرف: «لكن لماذا؟ ما الّذي يجبرها على أن تحزن على رستي؟ لو كنت مكانها لاحتفلت.»

«رستي؟»

كنت لا أزال أحمل الصحيفة، وقد أريته المانشيت.

ابتسم مستهزئاً: «آه.. هذا. لقد أسدينا معروفاً هائلاً بتلك الزيجة. كم ضحكنا على ذلك: كيف ظنّا أنهما يحطمان قلبينا في حين كنّا نتمنى طيلة الوقت أن يرحلا. أؤكد لك أننا كنّا نضحك ملء فاهينا حتى جاء الخبر.» كانت عيناه تفتشان بين الركام الّذي يغطي الأرض، ثمّ التقط ورقة صفراء متكورة وقال: «هذه.»

كانت برقية من تيوليب، تكساس: **بلغتنا أنباء بمقتل فريد في معركة عبر البحار. من زوجك وأطفالك أحر التعازي بمصابنا المشترك. المحب. دوك.**

* * *

لم تعد هولّي تذكر شقيقها أبداً: عدا مرة واحدة. علاوة على ذلك، كفّت عن تسميتي بفريد. مرّ يونيو وبعده يوليو، مضت كل شهور الصيف ودخلت بياتاً شتوياً ككائن شتوي لا يعلم أن الربيع قد جاء ومضى. صار شعرها أغمق، وزاد وزنها. صارت بالأحرى مهملة فيما يخص مظهرها: اعتادت الانكباب على الأطعمة المعلّبة، وارتداء معطف مطر دون شيء تحته. انتقل خوسيه إلى شقّة هولي، وحلّ اسمه محل اسم ماج وايلدوود فوق صندوق البريد. سوى أن هولي بمفردها كانت ما تزال رفقة مناسبة؛ فخوسيه كان يُمضي ثلاثة أيام أسبوعياً في واشنطن. وأثناء غيابه لم تستضف أحداً ونادراً ما كانت تغادر الشقّة–عدا أيام الخميس، التي كانت تقوم فيها برحلتها الأسبوعيّة إلى مدينة أوسيننغ[10].

كانت تلك الرحلات تنطوي على إشارة إلى عدم فقدانها الرغبة في الحياة. وفوق هذا، بدت قانعة أكثر، وإجمالاً أكثر سعادة من أي وقت مضى رأيتها فيه. وسيطر عليها حماس قوي مباغت لا يشبهها للتدبير المنزليّ، أسفر عن عدّة مشتريات بعيدة عن طبيعة هولي التي أعرفها: فمن مزاد بارك بيرنيت حصلت على سجادة مشغولة بمشهد اصطياد ظبيٍ عند أحد الخلجان، ومن عمارة ويليام راندولف هيرست ابتاعت زوجًا قاتمًا من الكراسي القوطيّة الهزّازة، ثم اشترت سلسلة المكتبة الحديثة كاملةً، وأرففًا من التسجيلات الكلاسيكية، منتوجات لا تُعد من متحف المتروبوليتان (ضمّت تمثال قطّ صيني كرهه قطّها واستهجنه، وأخيراً كسره،) وخلّاط وارينغ ووعاء طبخ بالضغط ومكتبة لكتب الطبخ. كانت تنفق

(10) مدينة في لونغ آيلاند بالقرب من سجن سينغ سينغ. م.

ساعات الأصيل متقمّصةً دور مدبرة المنزل، غارقة في عرقها في مطبخها الضيق.
«خوسيه يقول أنّني أفضل من كولوني. حقّا، من كان يحلم بأنّي أمتلك مثل تلك الموهبة الطبيعية الرائعة؟ كنت منذ شهر واحد أعجز عن قلي بيضة.» وكانت ما تزال عاجزة عن ذلك. كانت الأطباق البسيطة، البفتيك والسَلَطة الحقّة بعيدة عن قدراتها. بدلاً من ذلك، كانت تطعم خوسيه، وأحياناً أنا، حساء الـ Outré (حساء السلاحف السوداء الممزوج بالبراندي في شرائح من الأفوكادو) أو الإبداعات الجديدة كليًا (طائر التَّدْرُج المشويّ محشو بالرّمّان وثمار الكاكي) والابتكارات الملتبسة (دجاج وأرز بالزعفران مُغطى بصلصة الشوكلاته: «أكلة شرق هنديّة كلاسيكية، يا عزيزي») فيما كان نظام حصص السكّر والقشدة المتّبع في زمن الحرب يقيّد خيالها بشأن الحلويات– ومع ذلك، تدبّرت مرّة طبقاً اسمه تابيوكا التبغ: من الأفضل ألّا أصفه.
لن أصف أيضاً محاولاتها للإلمام باللغة البرتغالية: فقد كانت مِحنة مضجرة لكلينا: فما من مرّة زرتها إلا كانت إحدى أسطوانات تسجيلات لينغوافون لا تكف عن الدوران في الفونوغراف. الآن، أيضاً، نادراً ما لا تبدأ كل جملة من حديثها بـ «بعد أن نتزوج–» أو «حين ننتقل إلى ريو–» على الرغم من أن خوسيه لم يعرض عليها الزواج قط. هي اعترفت بذلك. «لكن، عموماً، هو يعرف أنّي حُبلى. بلى يا عزيزي. منذ ستة أسابيع مضت. لا أرى سبباً يجعلك تندهش هكذا: فهو لم يدهشني. مطلقاً un peu. أنا مبتهجة، وأرغب بتسعة أطفال على الأقل. أنا متأكدة أن بعضهم سيكون

ملوناً؛ فخوسيه يحمل مسحة زنجيّة، وأتصوّر أنّك خمنت ذلك؟ سيكون الأمر رائعاً بالنسبة لي: تُرى ما هو الأجمل من طفل أسمر بعينين خضراوين لامعتين جميلتين؟ أتمنى، وأرجو ألا تضحك– لكنني أتمنى لو كنت عذراء من أجله، من أجل خوسيه. لا يتعلق الأمر بالأعداد الغفيرة التي يدّعي بعض الناس أنّي عاشرتهم: فأنا لا ألوم الأوباش على ما يتقوّلونه، دائماً ما ألقي بتلك الإدعاءات العنصريّة وراء ظهري. حقّاً، مع ذلك، أحصيتهم الليلة السابقة، كان لدي أحد عشر عشيقاً فحسب– دون النظر لأيّة علاقة حدثت قبل أن أبلغ الثالثة عشرة من عمري، فعموماً، هذا مجرد شيء لا يُحتسب. أحد عشر، هل يجعل هذا العدد مني عاهرة؟ أنظر لماج وايلدوود. أو هوني تاكر. أو روز إيلين وارد. لقد أصبن بالسيلان كثيراً جداً لدرجة تستدعي التصفيق. طبعاً أنا لا أحمل ضغينة ضد العاهرات، باستثناء هذا الأمر: بعضهنّ ربما يملكن لساناً صادقاً، لكنهنّ جميعاً يحملن قلوباً كاذبة. أعني، لا تستطيع استغفال الرجل وحلب محفظته وعلى الأقل لا تحاول تصديق أنّك تحبه. لم أكن تلك المرأة قط. حتى بينّي شاكليت وكل هؤلاء الفئران. لقد كنت أغافل نفسي نوعاً ما بالتفكير بأنه حتى خِسّتهم لها بعض الجاذبية. في الواقع، باستثناء دوك، لو أردت احتسابه، فخوسيه أوّل رجل حقيقي في حياتي. آه، ليس فكرتي عن فارس الأحلام؛ فهو يكذب قليلاً ويُقلقه ما يقوله الناس ويتحمّم خمسين مرّة تقريباً يومياً: يحسُن أن يكون للرّجل رائحةً ما. هو أيضاً متكلّف ومتحفّظ، أبعد من أن يكون فارس أحلامي، ودائماً ما يدير ظهره لخلع ملابسه، ويصنع ضوضاء هائلة حين يأكل، ولا أحبّ

رؤيته يجري لأنّ ثمّة شيء مثير للضحك في مظهره حين يجري. لو أن لي حرية الاختيار من بين جميع من على وجه الأرض، أطقطق أصابعي وأقول أنت تعال، ما كنت لأختار خوسيه. ربما نهرو هو الأقرب. أو ويندلّ ويلكي[11]. أقبل بنموذج جاربو أيّ يوم. ولم لا؟ ينبغي على المرء أن يكون قادراً على الزواج من الرجال أو النساء أو اسمع، لو جئتني يوماً وقلت لي أنّك ترغب بقفز الحواجز مع Man o'War [12]، سأحترم شعورك. كلا، أنا جادة. يجب إفساح المجال للهوى. أنا فداء لذلك قلباً وقالباً. الآن صارت لديّ فكرة ما صالحة عن ماهيّته. لأنّني أحب خوسيه–سأكف عن التدخين لو طلب مني هذا. شخص ودود، يمكنه إضحاكي على النوبات الحمراء الشريرة، كل ما في الأمر أنها كفّت عن الانقضاض عليّ نهائيًّا، باستثناء مرات قليلة. وحتى حينئذٍ، لا تكون تلك النوبات بالغة القبح فأجرع السيكونال أو أضطر للذهاب إلى محل تيفاني: آخذ بذلته للتنظيف، أو أحشو بعض الفطر، فأشعر بتحسن، بحال جيدة تماماً. شيء آخر، لقد رميت خرائط الأبراج. لابد أنّي أنفقت دولاراً على كل نجم لعين في كل نظام شمسي. أمر مضجر، سوى أن الإجابة هي أن الأمور الطيبة تحدث لك فقط لو كنت طيباً. طيبة؟ كلمة صادقة هو ما أعنيه أكثر. ليست استقامة من النوع القانوني– سأسرق قبراً، سأسرق ربع دولار من عيني رجل مدفون في قبره لو خطر ببالي أن ذلك من شأنه إضفاء بهجة على اليوم– لكنه صدق من النوع المنفصل عن النفس. كُن أيّ شيء إلا

(11) مرشح الرئاسة الأمريكية عام 1944 عن الحزب الديمقراطي. م.

(12) حصان سباق حصد التاج الثلاثي في سباقات الخيول، وكان يُعد أكبر إنجاز في سباقات قفز الحواجز. م.

أن تكون جبانًا، مُدّعيًا، محتالًا عاطفيًا، عاهرة: أفضّل أن أصاب بالسرطان على حمل قلب مُخادع، ليس عن ورع، بل عن رغبة عمليّة أكثر، ربما يهدّئ السرطان من روعك، لكن المؤكد أن بوسع الآخرين ذلك أيضًا. آه، دعك من هذا يا جميل–ناولني القيثار وسأغني لك فادا[13] بلغة برتغالية لا تشوبها شائبة.

تلك الأسابيع الأخيرة، المتدة من نهاية الصيف لبداية خريف آخر، مشوشة في الذاكرة. ربّما لأن فهمنا لبعضنا بلغ تلك الحلاوة العميقة حيث يتواصل اثنان في صمتهما أكثر من الكلمات: حين تحلّ سكينة حنونة محل التوتر، حين يتمخض اللغو غير المريح والتصيّد لأجل ذلك عن صداقة أكثر جاذبية، ولحظات أكثر، في إحساسها الخارجي، دراميّة. كنّا كثيراً ما نقضي سهرات طويلة سوياً، حين يكون خارج المدينة (كنت قد طورت مواقف عدائيّة ضده، ونادراً ما كنت أستخدم اسمه)، لا نتبادل خلالها ما يتجاوز المائة كلمة، مرّة، سرنا الطريق كلّه إلى الحيّ الصينيّ، وأكلنا عشاء شاو-هين[14]، واشترينا بعض الفوانيس الورقية وسرقنا صندوق عيدان بخور، ثمّ تسكّعنا على جسر بروكلين، حينها، فوق الجسر، فيما نتأمّل سفناً تبحر صوب البحر وتمر بين سفوح سماء أشعلتها ألوان الغروب، قالت: «بعد سنوات من الآن، سنوات وسنوات، ستعود بي واحدة من تلك السفن، أنا وأطفالي البرازيليون التسعة. لأنّهم بلى، لابد أن يروا هذه الأضواء وهذا النهر–أنا أعشق نيويورك مع أنّها ليست لي، بنفس الطريقة التي تكون لك بها أشياء، شجرة

(13) أغنية برتغالية فولكلورية حزينة. م.

(14) طبق صيني أمريكي. م.

أو شارع أو بيت، شيء ما على أية حال، ينتمي لي لأنّي أنتمي إليه.» وقلت: «كفى.» كنت حانقاً لإحساسي بالإهمال– كقارب لقطر السفن في حوض السفن الجاف، فيما هي كمسافرة مبتهجة تحتفل بسلامة الوصول بصفّارات يتردد رنينها في الميناء وقصاصات ملونة في الهواء.

هكذا هي الأيام، الأيام الأخيرة، تهب في الذاكرة، ضبابية، خريفية، كلها متشابهة كأوراق تتساقط: حتى جاء يوم لا يشبه يوماً آخر في حياتي كلها.

* * *

جرى هذا في الخريف يوم الثلاثين من سبتمبر، كان عيد ميلادي، وهو في العادة لا تأثير له عدا توقّع بعض أشكال التذكارات النقدية من العائلة. كنت متلهفاً لزيارة ساعي البريد الصباحيّة. في الحقيقة، نزلت الدّرَج وانتظرته. ولولا أنّي كنت أتسكّع في الرّدهة، لما دعتني هولي لمرافقتها في ركوب الخيل، وبالتالي، لما جاءتها الفرصة لإنقاذ حياتي.

قالت حين وجدتني أنتظر ساعي البريد: «تعال.. هيّا نتنزّه فوق حصانين حول المتنزّه.» كانت تلبس سترة قصيرة من الجلد وبنطالًا من الجينز الأزرق وحذاء تنس، خبطت على بطنها لتلفت انتباهي لاستوائها، وتابعت: «لا تظن أنّي أرغب بفقدان الوريث. لكن ثمّة حصان، عزيزي مابيل مينرفا العجوز–لا أقدر على الرحيل دون وداعه.»

«وداعه؟»

«بعد أسبوع من السبت. لقد اشترى خوسيه التذاكر.» تركتها

تقودني عبر الشارع، مُغنّياً تقريباً. «سنغيّر الطائرة في ميامي، ثمّ نحلّق فوق البحر، ومن بعده جبال الأنديز. تاكسي!»
فوق الأنديز. تراءى الأمر لي، فيما نركب سيارة أجرة نحو السنترال بارك، كأنّي أنا الآخر، كنت أحلّق مهجوراً، طافياً فوق قمّة يغطيها الثلج وأرضاً خرابًا.
«لكنك لا تستطيعين. فبعد كل شيء، ماذا عن.. طيب، ماذا عن.. أنت لا تستطيعين حقّاً الرحيل وترك الجميع.»
«لا أظن أن أحداً سيفتقدني؛ ليس لي أصدقاء.»
«أنا. سأفتقدك. وكذلك جو بيل، وآه–ملايين، مثل سالي. المسكين السيد توماتو.»
تنهدت قائلة: «لقد أحببت سالي العجوز.» وتنهدت متابعة: «أتعلم أنّي لم أزره منذ شهر؟ كان ملاكاً حين قلت له أنّي راحلة. **حقّاً**.» وقطّبت جبينها: «بدا **مبتهجاً** لأنّي في طريقي لمغادرة البلاد، وقال إن ذلك أفضل شيء؛ لأنّه آجلاً أو عاجلاً ستقع المشاكل لو اكتشفوا أنّي لم أكن حقّاً ابنة أخته. وهذا المحامي السمين، أوشانيسي، أرسل لي خمسمائة دولار، نقداً، هدية زواج من سالي.»
أردتُ أن أكون قاسياً؛ فقلت: «يمكنك أن تتوقعي هدية مني، حين، وإذا، أُقيم الزفاف.»
ضحكت: «سيتزوجني، ويكون كل شيء على ما يُرام، في كنيسة، وسط عائلته هناك؛ فلهذا السبب ننتظر حتى نصل ريو.»
«وهل يعرف بأنّك على ذمّة رجل فعلاً؟»
«ما خطبك. هل تحاول إفساد اليوم؟ إنّه يوم جميل؛ دعه وشأنه!»
«لكن من الممكن جداً..»

«لا يمكن. لقد أخبرتك بأنّه لم يكن زواجاً شرعياً، وما كان له أن يكون.»

حكّت أنفها، واختلست النظر لي، متوعّدة: «وصدّقني يا عزيزي، ساعتها سأعلقك من أطراف قدميك وأذبحك كخنزير مخصي.»

كانت الإسطبلات–أظن أن استوديوهات التلفاز حلّت محلها الآن– في الشارع السادس والستين الغربي. اختارت هولي لي فرساً عجوزاً لونه أسود يخالطه البياض، ومائل الظهر. «لا تخف، هذه الفرس أكثر أماناً من مهد طفل.»

وهو ما كان في حالتي ضمانةً ضرورية؛ لأنّ حدود خبرتي في الفروسيّة كانت قاصرة على ركوب فرس صغيرة نَظير عشر سنتات في ملاهي الأطفال. ساعدتني هولي على رفع سرج الفرس، ثمّ امتطت حصانها الفضي الّذي قادنا فيما نتهادى عبر طرقات السنترال بارك الغربيّة لندخل مسارًا مُخصصًا لركوب الخيول تتناثر فوقه أوراق تهزها النسائم.

صاحت: «أرأيت؟ إنّه أمرٌ رائع.»

وبغتة، حدث ما حدث. فجأة، بينما كنت أحملق في أجمة الألوان في شعر هولي وهي تبرق في النور الأصفر المحمرّ لأوراق الشجر، أحببتها بما يكفي لنسيان نفسي، ورثائي اليائس لذاتي، وصرت راضياً أن أمراً تظنّه يسعدها في طريقه للتمام. وبرفق شديد، بدأ الحصانان يعدوان خبباً، ونسائم الهواء تداعب وجهينا، غطسنا في بِرك صنعتها الشمس تارة وفي الظل تارةً أخرى، وبهجة حبور الحياة ترتج بداخلي كطلقة نيتروجين. جرى هذا لبرهة، وأطلعتنا التالية على مهزلة مروّعة.

في وقتٍ واحد، مثل بشر بدائيين عالقين في شَرَك في الأدغال، وثبت عُصبة من الأولاد الزنوج من الأيك المحاذي لمسار الخيل، وهم ينعقون ويسبّون ويقذفون الحجارة، مُشبعين كفلَي الحصان بالسياط.

صهلت فرسي السوداء البيضاء، وارتفعت على ساقيها الخلفيتين، وترنحت كبهلوان يسير على حبل، ثمّ رمحت عبر المسار، مُخرجةً قدمي من الرّكاب؛ لتتركني بالكاد متصلاً به. كانت حوافرها تجعل الحصى يطق شرراً. مالت السماء. عبرت أمام عينَي بسرعة جبّارة أشجارٌ وبحيرة ممتلئة بمراكب شراعيّة للأطفال وتماثيل. هرعت المربيات لإنقاذ من يقمن برعايتهم من اقترابنا المرعب، وضجّ رجال مشرّدون وغيرهم بالصياح: اجذب العنان! و: واه.. يا رجل واه! ثم: اقفز. لم أتذكّر تلك الأصوات إلا لاحقاً؛ ففي ذلك الوقت كان كل ما يشغل بالي ببساطة هو هولي. صوت ركضها خلفي الأشبه برعاة البقر، دون أن تلحق بي، وتستحثّني على التجلّد. سادراً في الركض إلى الأمام: عبر المتنزّه وإلى الخارج في الجادة الخامسة: لتفرّ الفرس فزعة أمام حركة المرور التي بلغت ذروتها بعد الظهيرة؛ سيارات الأجرة والباصات التي انحرفت مصدرةً صريراً حاداً. تجاوزت قصر الدوق ومتحف فريك وأوتيل بيير وبلازا. لكن هولي كسبت السباق، بل ما هو أكثر، انضمَ رجل شرطة من الخيّالة إلى المطاردة: قاطعاً الطريق على فرسي، كلّ منهما من جانب، شكّلا سويًا كمّاشة أغرت فرسي بالوقوف. ثمّ كان، أخيراً، أن نزلت عنها. التقطت أنفاسي ووقفت هناك، ليس تماماً حيث نزلت. احتشد الناس، وراح الشرطي ينفخ وكتب في أوراقه. عبّر عن تعاطف معنا، وابتسم

قائلاً إنّه سيتدبّر أمر إعادة حصانينا إلى الإسطبل.
أركبتنا هولي في سيارة أجرة، مستفسرة: «كيف تشعر الآن يا عزيزي؟»
«بخير.»
أمسكت معصمي: «لكن ليس ثمّة نبض.»
«إذن لابد أنّي ميت.»
«لا يا مجنون. هذا خطير. انظر إليّ.»
كانت المشكلة في عجزي عن رؤيتها، بالأحرى كنت أرى أكثر من هولي، ثلاثة وجوه جميلة شاهقة البياض يملؤها القلق، أثلجت قلبي.
«بأمانة. لا أشعر بأي شيء. عدا الخجل.»
«أرجوك. هل أنت متأكد؟ قلْ لي الحقيقة. ربما تحتضر.»
«لكنني حي. وأشكرك؛ لأنّك أنقذت حياتي. أنت رائعة. فريدة. أحبك.»

«مجنون لعين.»
قبّلت خدّي. ثمّ صارت أربعة، وغبت عن الوعي.

* * *

تصدّرت صور هولي هذا المساء الطبعة المسائيّة من **الجورنال أميريكان** والطبعات المبكّرة من **الديلي نيوز** و**الديلي ميرور**. أهملت الدعاية مسألة الخيول وركّزت اهتمامها على قضية أخرى حسبما أظهرت العناوين: **القبض على فتاة لعوب في فضيحة مخدرات** (**الجورنال أميريكان**) **القبض على ممثلة تهرّب أفيوناً**

(الديلي نيوز) الكشف عن عُصبة لتهريب المخدرات تقودها امرأة فاتنة (الديلي ميرور).

بين زخم الأخبار، رافقت الأنباء أكثر الصور إثارة للدهشة: هولي، تدخل مخفر الشرطة محشورة بين محققين مفتولي العضلات أحدهما رجل والآخر امرأة. وسط هذا السياق القذر، حتى ملابسها (كانت لا تزال ترتدي ملابس الفروسية، السترة القصيرة والجينز الأزرق) كانت تطرح صورة بغيّ قاطعة طريق: نظّارة داكنة غامضة، وشعر منكوش وسيكارة بيكايوني تتدلى من شفاه عابسة لم يخفت بريقهما. كان العنوان الفرعي يقول:

هولي جولديتلي البالغة من العمر عشرين عاماً، الممثلة الناشئة وسيدة مجتمع المقاهي الشهيرة يوجّه لها المدّعي العام اتهامًا بأنها الشخصية المحرّكة وراء عصابة تهريب مخدرات دولية متصلة بالمهرّب سالفاتور "سالي" توماتو. تفاصيل. المخبران باتريك كونور وشيلده فيزّونيتّي (من اليمين إلى اليسار) يرافقانها في تقاطع شارع سبعة وستين مع جادة بريسينت. اقرأ التتمة صفحة 3.

كانت القصّة قد أبرزت أيضًا صورة رجل عيّنت هويته بأوليفر «الأب» أوشاونيسي (يحجب وجهه بقبعة فيدورا) تحتل ثلاثة أعمدة كاملة. أنقل هنا، ببعض التركيز، الفقرات وثيقة الصلة بالموضوع:

أصيب اليوم أعضاء مجتمع المقاهي بالصّدمة نتيجة القبض على الجميلة هولي جولديتلي، الممثلة الهوليوودية الناشئة البالغة من العمر عشرين عاماً والتي حظيت بتغطية إعلامية هائلة في نيويورك. وفي الوقت نفسه، في الثانية مساءً، اعتقلت الشرطة

أوليفر أوشاونيسي، *52* عاماً، في فندق سيبورد على شارع *49*، بعد خروجه من محل هامبورغ هيفن على جادة ماديسون. يواجه الاثنان اتهامات المدعي العام فرانك ل.دونوفان بأنهما شخصيتان هامتان في حلقة تهريب دوليّة للمخدرات يقودها فوهرر المافيا سيء السمعة سالفاتور "سالي" توماتو، الّذي يقضي حالياً عقوبة بالسجن خمس سنوات في سينغ سينغ عن جريمة رشوة سياسية... أوشانيسي، القسيس المخلوع المعروف بشكل مختلف في دوائر عالم الجريمة بـ "الأب" و"القسيس". له تاريخ مع الاعتقال يرجع إلى عام *1934*، حين قضى عامين في السجن لإدارته معهداً مُزيفاً باسم معهد رود آيلاند للصحّة العقليّة، الدّير. الآنسة جولديتلي، والتي تخلو صحيفة سوابقها من أية جريمة، قُبض عليها في شقتها الفاخرة ذات الموقع الأنيق في الجانب الشرقي من المدينة... وعلى الرغم من عدم صدور أي بيان رسمي عن مكتب المدعي العام، غير أن مصادر مسئولة تصرّ على أن الممثلة الشقراء الجميلة، الرفيقة الثابتة من فترة ليست بالطويلة للمليونير رزرفورد ترولر، قد شكّلت الصلة الوثيقة بين السجين توماتو وكبير مساعديه أوشانيسي... يُقال إن الآنسة جولديتلي، تحت غطاء ادّعائها القرابة بتوماتو، كانت تقوم بزيارات أسبوعية لسجن سينغ سينغ، وأثناء تلك الزيارات يزوّدها توماتو برسائل شفهية مشفرة تنقلها لأوشانيسي. وعن طريق تلك الصلة، تمكّن توماتو، الّذي يُعتقد أنّه ولد في سيفالو بصقليّة عام *1874*، من أن يكون صاحب اليد الطولى في عالم تهريب المخدرات دولياً ويكون على رأس القائمين بهذه الأعمال في المكسيك وكوبا

وصقلية وطنجة وطهران وداكار. غير أن مكتب المدعي العام رفض تقديم أية تفاصيل متعلقة بتلك الاتهامات أو حتى تأكيدها.. وشاية. وقد تواجد عدد كبير من المحققين الصحفيين في مركز شرطة شارع سبعة وستين وجادة بريسينت لدى وصول المتهمين لاحتجازهما. ورفض أوشانيسي، ضخم الجثة ذو الشعر الأحمر التعليق، فقد رفس مؤخرة أحد المصورين. لكن الآنسة جولايتلي، الحسناء الهشّة، برغم ملابسها الشبيهة بالصبيان في، سترة جلدية فضفاضة، بدت غير مبالية نسبياً، وصرحت للصحفيين: "لا يسألني أحد عما يجري بحق الجحيم" وتابعت: «Parce-que Je ne sais pas, mes chere (لأنّي لا أعرف يا أعزائي)- بلى لقد زرت سالي توماتو. اعتدت رؤيته كل أسبوع، ما الغلط في ذلك؟ فكلانا يؤمن بالرب نفسه!"

تحت العنوان الفرعي **اعترافات بإدمان المخدرات:**

ابتسمت الآنسة جولايتلي عندما سألها صحفي ما إذا كانت هي نفسها تدمن المخدرات "دخّنت الحشيش ولكن لم أكثر منه، فليست له نصف القوة التدميريّة كالتي للبراندي، وهو أرخص أيضاً. لكن لسوء الحظ أفضّل البراندي. لا، لم يذكر السيد توماتو المخدرات أمامي قط. تغضبني الطريقة التي يضطهدونه بها هؤلاء الحقيرون. إنّه شخص حساس، ورع. عجوز ساحر."

ثمّة خطأ فادح بشكل استثنائي في هذا التقرير: لم يكن القبض عليها في «شقتها الفاخرة»، بل في حمامي. كنت أنقع جسدي لتخفّ آلام ركوب الخيل في بانيو ممتلىء بالماء الساخن الممزوج بالملح الإنجليزي. وكانت هولي، الممرضة المهتمَة بي، تجلس على حافة

البانيو بانتظار أن تدلّكني بمرهم مسكّن للآلام ثم لفّي بالأغطية للنوم، عندما تناهى إلى سمعينا طرق على الباب الأمامي، ولأن الباب كان مفتوحاً، فقد صاحت هولي تدعو الطارق للدخول. كانت مدام سافيا سبانيلا، تجرّ خلفها اثنين من المحققين بملابس مدنيّة، أحدهما كان امرأة تعقد ضفائر شعرها الأصفر الغزير حول رأسها. دوت مدام سبانيلا، تقتحم الحمّام مصوّبة أصبعها إلى هولي ثمّ إلى عربي: «ها هي المرأة المطلوبة.» وتابعت: «انظرا كم هي فاسقة!» بدا المحقق مُرتبكاً: بسبب مدام سبانيلا وبسبب الموقف، لكن جذلاً فظّاً كسا وجه زميلته، التي وضعت يدها بقوة على كتف هولي، وبصوت طفولي مفاجئ قالت: «هيا معي، يا امرأة. سنقومَ برحلة قصيرة.»

عندئذٍ قالت هولي ببرود: «ارفعي يديك الحقيرتين عني أيتها العاهرة الخنزيرة.»

الأمر الّذي أغاظ المرأة: فصفعت هولي بكل قوتها. بكل قوتها، لدرجة جعلت رأس هولي يلتوي فوق عنقها، وطارت زجاجة المرهم من يدها، لتتفتّت فوق بلاط الأرضية– حيث، فاراً من البانيو كي أُثري العراك، وقفت على أطراف أصابعي، عارياً، أنزف خيطاً من آثار أقدامي الدامية، ألاحق المعركة حتى الردهة. أفلحت هولي في القول فيما يسوقها المخبران إلى أسفل الدرج: «لا تنس..أطعم القط، أرجوك.»

* * *

طبعاً، اعتقدت أن اللوم يقع على مدام سبانيلا: فكم من مرّة استدعت السلطات لتشكو هولي. ولم يقع في روعي أن المسألة

يمكن أن يكون لها تلك الأبعاد الرهيبة حتى ذلك المساء عندما أحضر جو بيل الصُّحف ملوّحاً. كان مستثاراً إلى درجة أعاقته عن الكلام على نحو مدرك، وقد ضجّت الحجرة بضربات قبضتيه أثناء قراءتي التفاصيل.

ثمّ قال: «هل تُصدّق ما يُقال؟ هل ورّطت نفسها في هذا الأعمال القذرة؟»

«إلى حد ما، نعم.»

فرقَع دواؤه المهدئ للمعدة في فمه، محملقاً فيّ، يمضغه وكأنه يسحق عظامي.

«يا ولدي، تلك حقارة. ومن المفترض أنك صديقها. يا له من زيف!»

«مهلاً. فأنا لم أقل إنها تورطت بعلمها؛ فهي لم تكن تعرف. لكنها فعلت ما يقولونه، حملت رسائل وما إلى ذلك...»

قال: «لديك نظرة هادئة للأمور، أليس كذلك؟ حُبّاً لله، من الممكن أن تُحكم بعشر سنوات في السجن، وربما أكثر.»

وانتزع الصحف من يدي. «أنت تعرف أصدقاءها، هؤلاء الرفاق الأثرياء. هيا نهبط إلى الحانة ونهاتفهم؛ إن فتاتنا بحاجة إلى محامين أكثر براعة؛ بدرجة تفوق قدراتي.»

كنت متقرّحًا وتتملّكني رعشة تعيقني عن ارتداء ملابسي بنفسي؛ فساعدني جو بيل. وفي طريق عودتنا إلى حانته، دعّمني في كشك الهاتف بمارتيني ثلاثيّ التركيز وكأس براندي ملؤه عملات معدنية. سوى أنّي عجزت عن التفكير فيمن أتصل به. كان خوسيه في واشنطن، ولم تكن لدي أية فكرة عن مكان وجوده هناك. ورستي ترولر؟ لا، ليس ذلك الحقير! فقط: من هم أصدقاؤها الآخرون

الذين أعرفهم. ربما كانت مُحقّة حين قالت إنّها بلا أصدقاء، أصدقاء حقيقيين.
اتصلت هاتفيًا بكريستفيو 5-6958 في بيفرلي هيلز الّذي أوصلني بأو.جي.بيرمان، ردّ الشخص على الطرف الآخر قائلاً أن السيد بيرمان في جلسة تدليك ولا يمكن مقاطعته، آسف، حاول الاتصال لاحقاً. كان جو بيل ساخطاً- وقال أنّه كان يجب أن أخبره أنّها مسألة حياة أو موت، وأصرّ على أن أهاتف رستي. أولاً، تكلمت مع كبير خدم السيد ترولر، الّذي أبلغني أن السيد والسيدة ترولر يتناولان العشاء وأنّه يمكنني تحميله رسالة؟ فصرخ جو بيل في السماعة: الأمر مُلِح يا سيدي. حياة أو موت. كانت المحصلة أن وجدت نفسي أتكلم واسمع لآنفة الذكر ماج وايلدوود تسألني: «هل أنت مُختل.. أنا وزوجي سنقاضي بكل تأكيد أي واحد يحاول عقد صلة تربط اسمينا بتلك البنت الس... س... ساقطة الو.. و.. سخة. كنت دائماً أعرف أنّها مُد.. مُد.. منة مخدرات بلا أخلاق، ليست إلا ساقطة تمارس نزواتها. إن السجن هو المكان الّذي تنتمي إليه، وزوجي يتفق معي في ذلك ألف بالمائة. سنقاضي بكل تأكيد أي أحد..»
وضعت السماعة، وتذكّرت دوك العجوز في تيوليب بتكساس، لكن لا، لن تحب هولي ذلك وستقتلني بكل تأكيد.
هاتفت كاليفورنيا مرة أخرى، كانت كل الخطوط مشغولة، وظلّت كذلك، لكن بمرور الوقت صار بيرمان على الخط بعد أن أفرغت عدة كؤوس من المارتيني، وسألني عن سبب مكالمتي. «عن الصبيّة، أليس كذلك؟ أنا على علم فعلاً بما جرى، وقد تكلمت مع إيجّي

فيتلشتاين، وهو أفضل محام في نيويورك. قلت له أن يعتني بها، وأرسل لي فاتورة التكاليف، لكن اجعل اسمي مجهولاً، هل تفهم؟ على كل، أدين لها ببعض الأمور. ليس أنّي أدين لها بأي شيء حقاً، كما قد يخطر ببالك. إنّها فتاة حمقاء. متصنّعة. لكن متصنّعة حقيقية، كما تعلم؟ على كل، سيطلقون سراحها بكفالة عشرة آلاف دولار. لا تقلق، سيعود بها إيجّي الليلة– ولن يُدهشني أن تكون قد عادت إلى البيت فعلاً.»

* * *

لكنها لم تعد تلك الليلة، ولا في الصباح حين نزلتُ لإطعام قطها. ولأنّه لم يكن لديّ مفتاح شقتها، فقد استخدمت سلم الطوارئ ودخلت عبر النافذة. كان القطّ في غرفة النوم، ولم يكن وحيداً، بل برفقة رجل ينحني على إحدى الحقائب. كلانا فكر في الآخر على أنّه لصّ منازل، فتبادلنا نظرات غير مريحة أثناء عبوري الشبّاك. كان له وجه جميل، وشعر مصقول، كان يشبه خوسيه، علاوة على ذلك، كانت الحقائب التي يحزمها تحتوي على ملابس خوسيه التي كان يحتفظ بها في شقّتها: الأحذية والحُلل التي كثيراً ما اعتنت بها، كانت دائماً ما تُرسل منها للإصلاح والتنظيف. قلتُ وقتها ما لابد أنّه الآتي:

«هل أرسلك السيد إبارّا بيجار؟»

أجاب بابتسامة حذرة ولكنة ثقيلة: «أنا قريبُه.»

«أين خوسيه؟»

كرر السؤال كأنّه يترجمه إلى لغة أخرى، وقال كأنه يطردني، مستأنفاً

أعماله الخدميّة: «آه. **أين هي!** إنّها تنتظر.»

إذن، فالدبلوماسي كان يُخطّط للهرب. عجباً! لم أندهش، أو يراودني أي شعور بالأسف. مع ذلك، يا لها من حِيلة تفطر القلب: «يجب أن يُجلد قريبك بالسياط.»

قهقه الرّجل، كنت مُتأكدًا من أنّه وعى ما قلته. أغلق الحقيبة وأبرز خطاباً.

«لقد طلب مني ابن عمي أن أترك هذه الرسالة لها. هل تمانع تسليمها لها؟»

كُتب على المُغلّف: **إلى الآنسة هولي جولديتلي - شكراً لحامله.**

جلست على فراش هولي، أحتضن قطها، أحسّ آلام هولي نفسها، حتى النخاع، وكأنها هي في هذا الموقف، وقلت:

«نعم. سأوصلها.»

* * *

وقد فعلتُ: دون أدنى رغبة في ذلك. لكنني لم أملك الشجاعة لإتلاف الخطاب، أو الإرادة الكافية للاحتفاظ به في جيبي حين سألت هولي مترددة ما إذا تناهى إليّ بأيّ شكل من الأشكال أنباء عن خوسيه. كنّا بعد صباحَين من لقائي بقريب خوسيه، وكنت أجلس إلى جانبها في غرفة عبقة برائحة اليود ومراحيض الفراش، إنها غرفة مستشفى وضعت فيها منذ ليلة القبض عليها. «حسنًا يا عزيزي» رحبت بي فيما أقترب منها على أطراف أصابعي أحمل علبة سجائر بيكايونيس وباقة من زهور بنفسج الخريف الجديد، «لقد فقدتُ الوريث». بدت وكأنها في الثانية عشرة من عمرها: شعرها المنساب شاحب ويسترسل فوق ظهرها، وعيناها اللتان لوهلة

سقطت عنهما النظارة الداكنة، صافيتان كماء المطر–لا يستطيع المرء تصوّر إلى أيّ درجة كانت مريضة.
مع ذلك كانت مريضة حقًّا: «يا الله! لقد كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت. دون خداع، كادت المرأة البدينة أن تقتلني. كانت تثرثر بإصرار قوي كعاصفة. أظن أنّه لم تتح الفرصة مسبقاً لأحكي لك عن المرأة البدينة، ربما لأنّي لم أعرف بأمرها أنا نفسي إلا بعد موت أخي. آنذاك، كنت أتساءل أين ذهب، وماذا يعني أن فريد قد مات، ثمّ رأيتها. كانت معي في الغرفة تحمل مهد فريد على ذراعها، ساقطة بدينة خرجت من أحد كوابيسي تتأرجح في كرسي هزّاز تحتضن فريد وتضحك كفرقة آلات نحاسية. المثير للسخرية أنّها فوق كل ذلك، يا صديقي: إنها تلك الممثلة الهزليّة التي تنتظرك لتحمّلك وزر ما حدث. أرأيت الآن لماذا أصابني الجنون وصرت أحطم كل شيء؟»
كنت، عدا المحامي الّذي أوكله أو.جي.بيرمان، الزائر الوحيد الّذي سمحَت له بزيارتها. شاركتْها الغرفة مريضات أخريات، ثلاث سيدات متشابهات رحن يتفحّصنني باهتمام ليس فظّاً لكنه شامل، ويخمنّ هويتي بكلمات إيطاليّة مهموسة، وقد شرحت هولي ذلك: «إنّهن يعتقدن أنك الرجل الّذي جعلني أحبل، الرفيق الّذي عاشرني» وردًّا على اقتراحي بأن تفسّر لهن الحقيقة، قالت: «مُحال. هنّ لا يعرفنَ الإنجليزية، وعموماً لا أريد إفساد متعتهنّ» ثمّ سألتني عن خوسيه.
فور أن رأت الخطاب، ضاقت عيناها وزمّت شفتيها بابتسامة صغيرة صارمة تجعل عمرها عسيراً على التحديد. ثمّ قالت تطلب مني: «عزيزي، هل تفتح هذا الدرج هناك وتناولني حقيبتي. إن فتاة

مثلي لا يمكنها قراءة مثل هذه الرسائل دون أن تصبغ شفتيها.»
تبرّجت مسترشدة بمرآة مدمجة، صابغة كل ملمح في وجهها ذي الاثنتي عشرة سنة، حدّدت شفتيها بأنبوب ولوّنت خديها بآخر. كحّلت حوافَ جفنيها وصبغت البقية باللون الأزرق، ثمّ رشّت عنقها بعطر 4711، علّقت حلق لؤلؤ في أذنيها وارتدت نظّارتها الداكنة، تدرّعت إذن، وبعد تقييمٍ كُلّه استياء لحال تقليم أظافرها المزري، شقّت الخطاب تفتحه وتركت عينيها تجري فوق سطوره، وفي تلك الأثناء كانت ابتسامتها الحجريّة تضؤل وتقسو. في النهاية طلبت مني سيجارة بيكايوني، سحبت نفساً: «مذاقها مروّع، لكنه سماوي» ورمت الخطاب صوبي: «ربما يفيدك هذا–إذا رغبت بكتابة قصّة رومانسية رديئة. لا تكن خنزيراً واقرأه عالياً. أريد أن اسمعه بنفسي.» مكتبة .. سُر مَن قرأ
كان يبدأ ب: «صغيرتي العزيزة...»
قاطعتني هولي فوراً، كانت تريد أن تعرف رأيي في خط يده، وكانت فكرتي عادية: خطّ معتدل واضح جداً ومُحكم. قالت تؤكد: «إنّه هو حقّاً. مُتأنّق لدرجة الإصابة بالإمساك.. استمر»
«صغيرتي العزيزة، كنت أحب فيك اختلافك عن الأخريات. لكن تصوّري كمّ اليأس الّذي أصابني لدى اكتشافي بتلك الطريقة القاسية والمشاعة مقدار التباين الكبير بينك وبين المرأة التي يطمح رجل له مثل إيماني ووظيفتي أن تصير زوجة له. من غير ريب، حزنت للخزي الّذي يحيط بظرفك الحالي، ولم يطاوعني قلبي على إضفاء مزيد من إداناتي للإدانات الملمّة بك بالفعل. لذا؛ فأنا أرجو ألا تدينيني أنا الآخر أيضاً. لدي عائلة يجب عليّ حمايتها، فضلاً عن

اسمي، وأعترف بجبني حيال أي شيء يزج بتلك الأمور إلى الخطر. انسني أيتها الطفلة الجميلة. لم أعد هنا؛ فقد عدت للديار. لكني أدعو الله أن يرعاك أنت وطفلك. وأدعوه أن يكون أرحم بك مني- خوسيه»

«حسنًا؟»

«بشكلٍ ما يبدو صادقاً تماماً. بل ربما يمس المشاعر.»

«**يمس المشاعر**؟ هذا سقط المتاع المُزيَف.»

«لكن عموماً، هو يعترف بجبنه. ومن منظوره للأمور، ينبغي أن تفهمي...»

كانت هولّي، مع ذلك، لا ترغب في الاعتراف بتفهّمها، رغم أن ملامحها التي تخفيها وراء قشرة من مساحيق التجميل قد فضحتها. «لا بأس، ليس فأراً بلا سبب، فأر بالحجم العائلي، فأر بحجم كينج كونج، مثل رستي وبيّني شاكليت. لكن ويحك يا هولي ...» وقرنت كلامها بحشو قبضتها في فمها كرضيع يصرخ: «لقد **أحببته**. الجرذ» تخيلت النسوة الإيطاليات الثلاث أنهن يشهدن **أزمة** امرأة عاشقة، وصببن لومهن حيث شعرن بأنّه يستحق، وبدا استهجانهن واضحاً لي. كنت مشبعاً بالرضا: مبتهجًا أن أحداً ظنّ أن هولّي تهتم بأمري. هدأت عندما عرضت عليها سيجارة أخرى، وابتلعت ريقها ثمّ قالت: «ليباركك الرب أيها الغلام، وليباركك لكونك ذلك الفارس الرديء. لو لم أُصرّ على لعب دور كالاميتي جين[15] لكنتُ الآن قابعة في بيت ماما لغير المتزوجات. تمرين شاق، وقد أوفى بالغرض. لكنني خشيت العفن La merde الذي قد يخرج من مركز الشرطة لو

15 إحدى فتيات الغرب الأمريكي في أفلام رعاة البقر. م.

قلت إن إجهاضي كان بسبب صفعة الآنسة دايكيرو. بلى يا سيدي، أستطيع مقاضاتهم بالكثير من التُهم، بما في ذلك الاعتقال الخطأ.»
حتى تلك اللحظة، كنّا نتحاشى ذكر أكثر محنها شرّاً، وهذه الإشارة المازحة لها بدت مروّعة، ومثيرة للأسى، وكشفت بشكل لا ريب فيه عجزها عن إدراك الحقائق الكئيبة المحدقة بها. قلت: «الآن يا هولي» أفكر: كُن قوياً، ناضجاً وناصحاً. «الآن يا هولي. لا نستطيع التعامل مع الموقف كأنّه مزحة. لابد أن نحتاط.»
«لا زلت صغيراً جداً على الفساد، وضعيفاً كذلك. بالمناسبة. ماذا تعمل الآن؟»
«لا شيء. عدا صداقتي لك، وأشعر بالقلق. أقصد حيال معرفتي ما تنوينه.»
حكّت أنفها وحدّقت بالسقف، وقالت: «اليوم الأربعاء، أليس كذلك؟ لذا أفترض أنّي سأنام حتى السبت، نومًا[16] عميقًا حقّاً. صباح السبت سأفرّ للمصرف، ثمّ سأتوقف عند الشقّة لألتقاط ثوبًا للنوم أو اثنين وطاقم الحليّ الأنيقة. ثمّ إلى مطار أيدلوايد، حيث، كما تعلم جيداً، لدي حجز ممتاز على متن طائرة بالدرجة الأولى. ولأنّك صديق فسأدعك تلوّح لي. **أرجوك** كفّ عن هزّ رأسك.»
«هولي. هولي. لا يمكنك فعل ذلك.»
«Et pourquoi pas?- ولِمَ لا؟- لن أحفى وراء خوسيه، إذا كان هذا ما تفكر فيه؛ وحسب تقديري، فهو مواطن عالمي خالص. كل ما في الأمر: لماذا أهدر تذكرة رائعة؟ مدفوعة فعلاً؟ فضلاً عن أنّه

(16) Shluffen كلمة ألمانية تعني نوم، وقد اختارت هولّي استخدامها هنا. م.

لم تسبق لي زيارة البرازيل قط.»
«لكن...أي نوع من الحبوب يعطونها لك هنا؟ ألا تدركين أنك تواجهين اتهامًا جنائيًا، وأنهم إذا ما اكتشفوا أنك تتخطّين الكفالة، فإنهم سيزجّونك في السجن ويلقون المفتاح. وحتى لو نجحت في الهروب؛ فلن تتمكني من العودة إلى الديار مرة أخرى أبداً.»
«هكذا إذن، إنّه أمرٌ بغيض. لكن عموماً، الوطن حيث تشعر أنّك في الوطن. وأنا ما زلت أفتش.»
«لا يا هولي، هذه حماقة. أنت بريئة، ويجب أن تبرهني على تلك البراءة.»
قالت: «مرحى، مرحى» ونفخت دخان سيجارتها في وجهي. كان حديثنا قد خلّف في نفسها انطباعا قوياً، مع ذلك، اتسعت عيناها برؤى حزينة وكأنها عيناي أنا: حجرات من صفيح، وأروقة فولاذية بأبواب تنغلق الواحد تلو الآخر. «أوه.. دعك من هذا.» دسّت سيجارتها بين شفتيها، وتابعت: «لديّ فرصة معقولة ألّا **يمسكوا** بي، بشرط أن تغلق فمك Bouche Fermez. أنظر، لا تستخف بي، يا عزيزي...» ووضعت يدها فوق يدي وضغطتها بصدق هائل مفاجئ، وتابعت: «ليست لديّ خيارات كثيرة. لقد تحدثت بشأن ذلك مع المحامي: آه، لم أخبره شيئاً عن ريو– لقد دفع هو نفسه رشوة للشرطيين بدلاً من أن يفقد هو أتعابه، ناهيك عن السنتات التي عرضها أو.جي. للكفالة. نِعْمَ القلب قلب أو.جي، سوى أنّي أعنته مرّة في الساحل على الفوز بأكثر من عشرة آلاف دولار في لعبة بوكر واحدة: صرنا متعادلين. كلا، سأفاجئك: جُلّ ما يريده الشرطيون مني هو اغتصابين مجانيّين وخدماتي كشاهدة ادّعاء ضد سالي– لا

أحد يعتزم مقاضاتي؛ فليس ثمّة شبح للقضية. حسناً، يجوز أنّي عفنة حتى النخاع، شاذة، لكن: الشهادة ضد صديق هو ما لن أفعله، إلا لو أثبتوا أنّه خدّر الراهبة كيني[17]. المحك عندي كيف يعاملني المرء، وسالي العجوز، صحيح أن أياديه لم تكن دائماً بيضاء معي، قُل إنّه استغلني إلى درجة ما، لكن لا يُعقل أن يصير المقابل هو تقديم سالي للإعدام، كنت أرجو أن تختطفني المرأة البدينة عاجلاً على أن أساعد رجال القانون على شنقه.»

أمالت مرآتها المدمجة فوق وجهها، وراحت تصقل أصبع أحمر الشفاه بخنصر مُنحَن، وقالت: «بصراحة، ليس هذا كل ما في الأمر. بعض الظلال من النور الوهّاج يخرّب مظهر أي فتاة. وحتى لو منحني المحلّفون ميدالية القلب الأرجواني؛ فليس لتلك الجيرة مستقبل: فهم موجودون في كل مكان من لارو إلى خمّارة بيرونا وغريل-صدقني، سأصير منبوذة شأني شأن السيد فرانك إ.كامبل[18]. لو كنت قد تعيّشت من مواهب كمواهبي يا كوكي؛ إذن لفهمت نوع الإفلاس الّذي أصفه. آه، آه، لست مولعةً فحسب بزوال أجد نفسي عبره أتاجر بعِرضي في أنحاء روزلاند برفقة الريفيين في الجهة الغربية، في الوقت الّذي تتبختر فيه سعادة مدام ترولر بغمدها دخولاً وخروجاً من متجر تيفاني. لن أتحمل ذلك. أفضّل أن تنال مني المرأة البدينة.»

أطلعتنا ممرضة خفّت إلى حجرتنا بأن ساعات الزيارة قد انتهت.

---

(17) فاعلة خير شهيرة خدمت كممرضة أثناء الحرب العالمية الأولى، نالت شهرتها بعد اكتشافها علاجاً ناجعاً لمرض شلل الأطفال. م.

(18) Frank E.campell: مؤسس لوكالة خاصة بإجراءات الدفن ومراسمه، في شارع ماديسون في منهاتن، منذ العام 1898. م.

راحت هولي تتذمّر، لكنها بترت تذمرها حين حشرت الممرضة ميزان حرارة في فمها. سوى أنّها لم تمنع نفسها أثناء رحيلي عن أن تقول: «اصنع لي معروفاً يا عزيزي. اتصل **بالتايمز** أو أي صحيفة أخرى وأحصل لي على قائمة بأغنى خمسين رجلاً في البرازيل. لا أمزح. أغنى خمسين: لا يهم العِرق أو اللون. معروف آخر، نقّب بأنحاء الشقّة حتى تعثر على تلك الميدالية التي أهديتها لي، ميدالية سانت كريستوفر؛ سأحتاج إليها في رحلتي.»

* * *

كانت السماء حمراء ليلة الجمعة، وأرعدت. يوم السبت هو يوم الرحيل. ترنّحت المدينة تحت أمطار شديدة كأنّها عاصفة، إلى درجة ربما ترى معها قروشاً سابحة خلال الهواء؛ الأمر الّذي جعل من غير المرجح أن تستطيع طائرة النفاذ عبره.
لكن هولي، متجاهلة قناعتي بأن رحلتها ستلغى، واصلت الاستعداد للسفر– مُزيحة عبئها الأكبر عن عاتقها إلى كاهلي؛ لسبب بسيط هو أنها رأت أنّه من غير الحكمة أن تظهر بالقرب من بناية الطوب الأحمر. وهو ما كانت مُحقّة بشأنه، أيضاً: كانت ترزح تحت نير المراقبة، سواء من قِبل الشرطة أو الصحفيين أو طغمة المهتمّين الآخرين ممّن لا يعلمهم المرء–ببساطة، رجل واحد وأحياناً رجال، يتحلّقون في الأرجاء. وهكذا، خرجت من المستشفى إلى مصرف مالي، ثمّ إلى حانة جو بيل مباشرة. «إنّها لا تعي أنّها مُراقبة.» هكذا باح لي جو بيل حين جاء إليّ يحمل رسالة من هولي مفادها رغبتها لقائي هناك في أسرع وقت ممكن، خلال نصف ساعة على الأكثر، ومعي «حُليّها.

قيثارتها. فرشاة أسنانها وأمتعة. وزجاجة براندي مُعتقة عمرها مائة عام: تقول إنّك ستعثر عليها مُخبأة في قاع سلّة الملابس المتسخة. آه، والقطّ. تريد القطّ. لكن تبّاً.» وتابع: «لا أعلم ما إذا كان ينبغي علينا مساعدتها في ذلك من الأصل. لابد أن نحميها من نفسها. بالنسبة لي، أشعر برغبة في إبلاغ الشرطة. يجوز لو عدت وأعددت لها تركيبة خمور، ربما أستطيع جعلها مخمورة كفاية لإلغاء فكرة السفر.»

أنجزتُ ما تريد مُتعثراً، مُتدحرجاً صاعدًا دَرَج الطوارئ بين شقّة هولّي وشقّتي ونازلًا منه، أتأرجح في مهب الريح مُبللاً حتى النخاع (بخدوش ثخينة أيضاً: لأن القط لم يحبذ هذا الإجلاء، خصوصاً في مثل هذا الطقس العاصف) عملية جمعٍ سريعة من الطراز الأول لأمتعتها اللازمة للسفر. حتى ميدالية سانت كريستوفر وجدتها. كدّست كل شيء في أرضية حجرتي، هرم مُثير من حمّالات الصدر وأحذية الرقص الخفيفة وأغراض جميلة حزمتها في حقيبة هولي الوحيدة. كانت هناك فوضى باقية لابد أن أضعها في أكياس البقالة الورقية، وقد عجزت عن التفكير في الكيفية التي أحمل بها القط، حتى خطرت لي فكرة أن أحشوه داخل أحد أكياس المخدّات.

ناهيك عن السبب، لكن ذات مرّة مشيت من نيو أورليانز إلى نانسيز لاندنج في الميسيسيبي، أقل قليلًا من خمسمائة ميل. كانت تجربة لاهية تُبهج القلب مقارنة بالرحلة إلى حانة جو بيل. امتلأ القيثار بالمطر، مطر شبّع الأكياس الورقية التي تهرّأت لينسكب العطر فوق الرصيف، وتتدحرج اللآلئ في بالوعة: في الوقت الذي كانت فيه الرياح تتدافع والقط يخربش، صرخ القط—لكن الأسوأ، كان خوفي، جُبْنٌ يشبه ما أحَسّ به خوسيه: أن هذه الشوارع

العاصفة تراءت وهي تعجّ بحضور غير مرئي ينتظر الإيقاع بي في الشرك، واعتقالي بتهمة مدّ يد العون إلى خارجة على القانون.
قالت الخارجة على القانون: «لقد تأخرت يا فتى. هل أحضرت البراندي؟»
أما القط، فقد انطلق، وثب وقعد فوق كتفها: مؤرجحًا ذيله كأنه عصا تؤدي موسيقى عاطفية. تراءت هولّي، هي الأخرى، مسكونة برجيع لحن مرح يتمنى رحلة سعيدة bon voyage. قالت وهي تنزع فلينة البراندي: «كان من المُفترض أن تكون تلك الزجاجة جزءًا من صندوق زفافي. كانت فكرتي أن نرتشف منها جرعة كبيرة كل عام يمر على زواجنا. حمداً لله أنّي لم أشترِ الصندوق. سيد بيل، وأنت يا سيدي، هلمّ إلى ثلاثة كؤوس.»
ردّ بيل: «لن تحتاجي سوى لاثنين؛ فلن أشرب نخب حماقتك.»
كلّما تملّقته أكثر بالقول: «آه، سيد بيل، لا ترحل السيّدة كل يوم، ألن تشرب نخبها؟» ازداد فظاظة: «لن أشارك في هذا الأمر أبداً. لو كنتِ في طريقك إلى الجحيم، فهذا جرّاء تفكيرك وحدك، بلا أدنى عون منّي.» كانت عبارة جافّتها الدّقة: فما هي إلا ثوان لاحقة إلا وكان قد تدبّر لها سيارة ليموزين بسائق تنتظر خارج الحانة، وهولي هي أوّل من لاحظها، فوضعت كأسها، مقوّسةً حاجبيها كأنها تنتظر رؤية المدّعي العام شخصياً يترجل منها. كذلك أنا. وحين رأيت وجه جو بيل يحمرّ خجلاً، كان لابد أن أفكر أنّه: يا الله، لقد اتّصل بالشرطة. لكن سرعان ما أعلن بينما أذناه تتّقدان حُمرة. «هوّني عليك. إنها إحدى سيارات كاري كاديلاك. استأجرتها كي تقلّك إلى المطار.» وأدار ظهره لنا ليعبث بواحدة من ترتيبات زهوره. قالت

هولي: «عزيزي السيد بيل الكريم. أنظر إليّ يا سيدي..»
لم يفعل، وبدلاً من ذلك انتزع الزهور من المزهرية ودفع بها إليها، فقدَت تنسيقها وتبعثرت على الأرض. «مع السلامة» قال، وكأنه سيتقيّأ، ثم هرع لحمام الرجال، وسمعنا الباب ينغلق.
كان سائق الليموزين نموذجاً للاحتراف، استقبل متاعنا الفوضويّ بتهذيب خالص، وظلّ وجهه على حاله خاليًا من التعبير، حين، أثناء تعديل الليموزين مسارها لخارج المدينة عبر مطر يخفّ انهماره، خلعت هولي ثيابها، ثياب ركوب الخيل التي لم تجد الفرصة قط لاستبدالها، وكافحت لتحشر جسدها داخل ثوب أسود ضيّق. لم نتكلم: فلن يؤدي كلامنا إلا إلى شجار، كذلك، بدت هولي مشغولة البال بشكل يتعذر معه الكلام. دندنت لنفسها، ثم جرعَت بعض البراندي، ومالت بجذعها للأمام على نحو متواصل لتُنعم النظر عبر النوافذ كأنها تتصيد عنواناً–أو، كما ارتأيت، تسجّل انطباعات أخيرة لمشهد رغبت في تذكّره. لكنها خالفت ظنوني؛ فقد طلبت من السائق التوقف، وخرجنا إلى ناصية شارع في حي هارلم الأسباني. حي متوحّش، مبهرج، مُتقلّب تكلّل جدرانه ملصقات لصور نجوم الأفلام والعائلة المقدّسة. ممشى تغطيه قشور الفاكهة وصحيفة بالية تتقاذفها ريح لا زالت تهدر، رغم أن المطر هدأ وفجّت زُرقة بالسماء في أماكن عدّة.
ترجّلت هولي من السيارة، مصطحبةً القط. هدهدته ومسحت على رأسه وسألته: «ما رأيك؟ لابد أن هذا هو أنسب مكان لذَكَرٍ خشن مثلك. صفائح قمامة. فئران وفيرة. كثرة من القطط المُشرّدة تكفي لتكوين عصابة. هيا، اذهب.» وأردفت كلامها

بإطلاق سراحه، وعندما تسمّر في مكانه، رافعاً وجه قاطع الطريق، مُستفهماً منها بعيني قرصان صفراوين، ضربت الأرض بقدميها: «قلت اذهب واغلبهم» تمسّح بقدميها، فهتفت: «قلت اغرب عني» ثمّ قفزت عائدة للسيارة، صافقة الباب، و..: «هيا– تقول للسائق–هيا.. هيا..»
كنت منذهلاً: «عجباً، أنت. أنت فاسقة.»
عبرنا مربّعاً سكنياً قبل أن تجيب. «قلت لك أننا التقينا بجانب النهر يوماً ما: هذا كل ما في الأمر. كلانا مُستقل، ولم يقطع أحدنا للآخر عهدًا بأن.. لم.. » اختنق صوتها، واكتسى وجهها الّذي تقلّص لا إراديًا شحوب المرض. كانت السيارة قد توقفت أمام إشارة المرور الضوئية؛ ففتحت هولي الباب، وركضت عائدة إلى الشارع، فتبعتها.
لكن القط لم يكن حيث تركَتْه. كان الشارع خالياً، عدا سكّيرٍ يتبوّل وراهبتين زنجيتين تسوقان طابوراً من الأطفال يرددون أغاني جميلة، وقد برز أطفال آخرون إلى عتبات البيوت واتكأت السيدات على أفاريز شبابيكهن لمشاهدة الطابور. اندفعت هولي في أرجاء المربع السكني، تجري جيئة وذهاباً، مرددة: «أنت. يا قِطّي. أين أنت؟ هنا، يا قِطّي.» واصلت بحثها حتى جاء صبي نحيل متورم يعلق قطًّا عجوزًا من مؤخرة عنقه: «هل تريدين قطًّا لطيفًا يا آنسة؟ هاتِ دولارًا!»
لحقت بنا الليموزين. أسلمتني هولي الآن قيادها صوب السيارة. عند الباب، ترددت، نظرت خلفي، وراء الصبي الّذي لا يزال يعرض قطّه (نصف دولار. ربع دولار، ربما؟ ربع دولار، ليس مبلغاً كبيرا)

ارتعدت، كان عليها أن تقبض على ساعدي لتحافظ على قامتها منتصبة: «آه، يا إلهي. كلانا كان ينتمي إلى الآخر. لقد كان لي.»
قطعت لها وعداً، قلت أنّني سأعود لأفتّش عن قطّها: «سأعتني به أيضاً، أعدك.» ابتسمت: تلك الابتسامة المسروقة الحزينة، قالت هامسة: «لكن ماذا عنّي؟» عادت ترتجف. «أنا جد خائفة يا غلام. بلى، أخيراً. لأنّ الأمر يمكن أن يستمر للأبد. لن تعرف أبداً ما هو لك حتى تخسره. النوبات الحمراء، إنّها لا شيء. المرأة البدينة، نكرة. إنّ فمي، مع هذا، جافّ جدًّا، فلو أن حياتي اعتمدت على بصقةٍ لما استطعت بصقها.» دلفت داخل السيارة، غاصت في المقعد وقالت: «معذرة أيها السائق. هيا نرحل.»

* * *

اختفاء صديقة توماتو. و: شكوك بأن الممثلة المتورطة في قضية المُخدرات قد راحت ضحية عصابات التهريب. وفيما بعد، مع ذلك، نشرت الصحافة: **تعقّب الفتاة اللعوب الهاربة إلى مدينة ريو.** بدا جليّاً أن السلطات الأمريكية لم تبذل جهداً يُذكر من أجل استعادتها، وسرعان ما تضاءلت المسألة لمحض إشارات عابرة في أعمدة الثرثرة الصحفيّة أحياناً، وكقصة إخبارية عادت إليها الحياة مرة واحدة: يوم عيد الميلاد، عندما لقي سالي توماتو حتفه جراء سكتة قلبية في سجن سينغ سينغ. مرّت شهور وجاء الشتاء دون كلمة من هولي. باع مالك بناية الطوب الأحمر ممتلكاتها المهجورة، سريرها المفروش بالحرير الأبيض المصقول، النسيج المُطرّز، كرسيها القوطي النفيس، وحصل مستأجر جديد على الشقّة، كان اسمه

كوينتنس سميث، وقد رفّه عن كثير من زائريه الرجال ذوي الطبيعة الصاخبة كما كانت تفعل هولي دائماً– عدا أنّه في حالته لم تعترض مدام سبانيلا، بل شغفت بالشاب وكانت تزوّده بشرائح لحم البقر كلّما تورّمت عيناه. لكن في الربيع جاءتني بطاقة بريدية: مكتوبة بالقلم الرصاص، وممهورة بإمضاء شفتيها المصبوغتين: **كانت البرازيل بغيضة لكن بيونس أيرس أفضل. ليست مثل تيفاني تماماً، لكن تقريباً. أنا في كنف دوفين سينور. الحب؟ أعتقد ذلك. على أية حال، أبحث عن مكان مناسب أسكن فيه (لدى سينور زوجة، وسبعة أطفال) وسأعرفك بعنواني حين أعرفه أنا أولاً. أرق تحياتي** Mille tendresse. سوى أن العنوان، لو كان موجوداً حقّاً، فإنه لم يصل، ما أحزنني؛ فثمّة الكثير الّذي أرغب في كتابته لها: أنّني بعت قصتين، وقرأت أن آل ترولر قد أقاما دعاوى قضائية كل منهما ضد الآخر من أجل الطلاق، وأنّني تركت بناية الطوب الأحمر لأنّه صار مأوى للمخبولين. لكن في الغالب، كنت أرغب في إخبارها عن القطّ. لقد حافظت على وعدي، ووجدته. استغرق العثور عليه أسابيع من التجوال في ساعات ما بعد دوام العمل بين شوارع هارلم الإسباني، كانت ثمّة الكثير من الإنذارات الكاذبة- ومضات من النمور مخططة الفراء، تبيّن عند التدقيق، أنها ليست هو. لكن يوما ما، في أصيل شتائي من يوم أحد مشمس تسري فيه برودة خفيفة، رأيته. مُحاطاً بأصص النباتات ومؤطراً بستائر دانتيلا نظيفة، جالساً في شباك حجرة تبدو دافئة: تساءلت أي الأسماء اكتسب؛ لأنّني كنت موقناً أنّه حصل على واحد، وأنّه بلغ مكاناً ينتمي إليه، كوخاً إفريقياً أو أياً كان، أرجو أن تبلغه هولي، هي الأخرى.



بيت الزهور

لابد وأن أوتيلي هي أسعد بنت في بورتوبرنس، وكما قالت لها بيبي، انظري إلى كل ما يمكن وضعه في رصيدك. «مثل ماذا؟» قالت أوتيلي؛ بسبب من زهوها وتفضيلها الإطراء على لحم الخنزير أو العِطر. «مثل طلّتكِ،» أفصحت بيبي: «لديكِ بشرة فاتحة مُحبّبة، وحتى لون عينيك يقترب من الزُرقة، وهذا الوجه الحلو- ليست هناك بنت على الطريق تستطيع مباراتك في ثبات عُشّاقها، وكل واحد منهم مُستعدّ لأن يشتري لك كلّ البيرة التي تستطيعين شربها.» سلّمت أوتيلي بصحّة ذلك، ومبتسمةً راحت تُجْمِل ثرواتها: «لديّ خمسة فساتين حرير، وزوجان من أحذية الساتان الأخضر، ولديّ ثلاثة أسنان ذهبيّة تساوي ثلاثين ألف فرنكًا، وقد يهديني السيّد جيمسون أو غيره سواراً آخر. لكن، يا بيبي،» وتنهّدت، دون أن تتمكّن من التعبير عن استيائها.

كانت بيبي أقرب صديقاتها إليها، ولديها صديقة أخرى أيضاً: روسيتا. كانت بيبي تشبه العجلة، فهي مدوّرة وتمشي كأنها تتدحرج، وقد خلّفت خواتم الخُردة خاصّتها دوائر خضراء حول أصابعها السّمينة؛ أمّا أسنانها فغامقة مثل جذوع أشجار مُحترقة، وحين تضحك يمكنك سماعها بعيدًا عند البحر! على الأقل ادّعى البحّارة ذلك حقًّا. أمّا روسيتا، صديقتها الأخرى، فكانت أطول من أغلب الرجال، وأقوى؛ تتبختر في الليل بين الزبائن، وتلثغ بدلع سخيف، لكنها في النهار تمشي بخطى واسعة وتتكلّم بنبرة عسكريّة خشنة. الصديقتان من جمهورية الدومينيكان، وهو ما يعتبرانه سبباً كافياً ليشعرا بنفسيهما في مستوى أعلى من مواطني هذه البلاد المُغبشة، ولم يهمّهما أن أوتيلي نفسها محليّة. صارحتها

بيبي: «إن لك عقلًا راجحًا،» ومن المؤكد أن ما شغفت به بيبي هو عقلها الذكي، لكن لطالما خشيت أوتيلي أن تكتشف صديقتاها أنّها لا تجيد القراءة ولا الكتابة.

كان البيت الّذي يسكنّه ويعملن فيه مترنّحاً ونحيلاً مثل برج كنيسة، وقد كساه الصقيع الهشّ، واعترشت شرفاته نباتات الجهنميّة. ورغم غياب أيّ إشارة خارج البيت تدلّ عليه، فإنّه عُرِف بالشانزلزيه. كانت المالكة، العانس المُقعدة ذات الطلّة المنطفئة، تدير البيت من حجرة في الطابق العلوي، حيث مكثت حبيسةً تتأرجح في كرسي هزّاز، متجرّعة من عشرة إلى عشرين زجاجة كوكاكولا كل يوم. كل شيء محسوب؛ لديها ثماني سيدات يعملن لأجلها، وعدا أوتيلي فجميعهن تجاوزن الثلاثين. في المساء، حين تلتمّ السيدات في الشّرفة، حيث يتحادثن ويتباهين برسائل المُغرمين التي تلمع في الهواء مثل فراشات تهذي، تبدو أوتيلي طفلة حالمة مُبهجة مُحاطة بشقيقاتها الأقبح والأكبر سنًّا.

أمّها ماتت، وكان أبوها مُزارعاً عاد إلى فرنسا. فتربّت في الجبال بمعيّة عائلة ريفيّة خشنة، ضاجعها كلّ أولادها في سنّ مُبكّرة في مكان ما ظليل تكسوه الخُضرة. وقبل ثلاث سنوات، حين كانت في الرابعة عشرة من العمر، نزلت للمرّة الأولى إلى سوق بورتوبرنس؛ كانت رحلة لمدّة يومين وليلة، مشت خلالها تحمل كيسًا يزن عشرة أرطال من الحبوب، ولتسهيل الحمولة سمحت لقليل من الحبوب بالتسرّب، ثمّ للمزيد، وبمرور الوقت بلغت السوق وقد فرغ الكيس تقريباً. بكت أوتيلي عندما تخيّلت ما سيكون عليه غضب العائلة حين ترجع إلى البيت دون المال ثمنًا للحبوب، سوى أن تلك الدموع

لم تدم طويلاً: فقد ساعدها هذا الرجل اللطيف المرح على تجفيفها، واشترى لها شريحة جوز هند، واصطحبها لرؤية ابنة عمّه التي كانت مالكة الشانزلزيه. لم تقدر أوتيلي على تصديق حظّها الطيّب: الفونوغراف وأحذية السّاتان ورجال مازحون بغرابة وإدهاش، والمصباح الكهربائي في حجرتها، المصباح الذي لم تكلّ قط عن تشغيله وإطفائه. وسرعان ما صارت البنت حديث الجميع وكان في استطاعة المالكة طلب مقابل مضاعف عنها. كبرت أوتيلي معجبة بنفسها، تقف لساعات طويلة أمام المرآة، ونادراً ما فكّرت في الجبال، ومع ذلك، بعد ثلاث سنوات، ما زالت كثرة من الجبال برفقتها: رياحها بدت وكأنها ما زالت تهبّ حولها.. فلم تلن قسوة أوتيلي، ولم يرتخ كفلاها العاليان ولا أخمصا قدميها الخشنان كجلد سحليّة.

في ثرثرة صديقتيها عن الحبّ والرجال الّذين أحببنهن، تعبس أوتيلي وتسأل: «ما هو إحساس المرء حين يكون عاشقاً؟» تتنهّد روسيتا «آه» بعينين منتشيتين، «كأنّ فلفلاً مرشوشاً على قلبك أو سمكة صغيرة تسبح في وريدك.» هزّت أوتيلي رأسها؛ فلو أن ما تقوله روسيتا هو الحقيقة، إذن فهي لم تعرف الحبّ قط؛ لأنّ تلك المشاعر لم تعرف طريقها إليها مع أيّ من هؤلاء الرجال الّذين جاءوا إلى البيت.

أقلقها الأمر إلى درجة اضطرّت معها في النهاية إلى زيارة كاهن هونغان[19]، فهو يقطن أعلى التلال المطلّة على البلدة. كانت أوتيلي

---

(19) Houngan: مصطلح يُطلق على الكاهن في ديانة الفودو المنتشرة في جزر الكاريبي، في مقابل المامبو Mambo للخوريّة، والمصطلح مشتقّ من كلمة nganga في لغة البانتو والتي تعني المعالج الروحاني أو جامع الأعشاب. م.

بخلاف صديقتها لا تثبّت أيقونات مسيحيّة بمسامير على حيطان حجرتها، فهي لم تؤمن بالله وحده، بل بأرباب شتّى: ربّ للطعام وآخر للنور وآخر للموت وآخر للخراب، وهكذا. كان الهونغان على اتصال بأولئك الأرباب، يحتفظ بأسرارها داخل هيكله، ويستطيع سماع أصواتها في خشخشة يقطينة، وأن يؤلّف من قوّتها جُرعة. زوّدها الهونغان بهذه الرسالة بعد كلامه مباشرة مع الأرباب: من الضروري أن تمسكي بنحلة بريّة وتطبقي عليها كفّيك، فإذا لم تلسعك النحلة، فاعلمي أنك عرفت الحبّ.

فكّرت في السيد جيمسون أثناء عودتها إلى البيت. كان قد تجاوز الخمسين، أمريكيّ ترتهن إقامته هنا بإنهاء مشروع هندسيّ ضخم، وكانت الأساور الذهبية التي تصطك حول معصميها هدايا منه. وهكذا تعجّبت أوتيلي، بينما تمرّ بسياج كساه بياض شُجيرةٍ من شُجيرات العسْلة الغنيّة بالرّحيق، وتساءلت ما إذا كانت مع كل هذا لا تهوى السيد جيمسون. كانت هناك نحلات سوداء زيّنت الشُجيرة، فأطبقت بهجمة جسورة من يدها على نحلة ناعسة، فلسعتها. سرت اللسعة كعاصفة ضربتها إلى ركبتيها، فجثت تبكي حتى صار من العسير معرفة ما إذا كانت النحلة قد لسعت يدها أم عينيها.

* * *

كنّا في شهر مارس، وكانت الجهود حثيثةً لإقامة كرنفال. في الشانزلزيه، راحت السيدات يحكن ثيابهن دون أن تشاركهن أوتيلي؛ لأنّها كانت قد عزمت ألا تلبس شيئاً مميزاً على الإطلاق. وفي نهاية أسبوع الاحتفالات، حين علت أصوات الطبول تحت القمر

الطالع، جلست في شبّاكها ورَنَت بعقل تائه صوب مغنيّ الفرق الموسيقية المتواضعة، يرقصون وينقرون طبولهم طوال الطريق، فأنصتت للصفير والضحك دون أن تشعر برغبة في اللحاق بهم.
«إن المرء ليظن أن عمرك ألف سنة،» قالت بيبي، وأردفت روسيتا: «أوتيلي، لماذا لا تأتين معنا لتشاهدي مصارعة الديكة؟»
لم تكن تتكلّم عن مصارعة ديكة عاديّة؛ فقد جاء المتبارون من كل أرجاء الجزيرة برفقة أشرس ديوكهم، وقد فكرت أوتيلي أنّها ربما تذهب هي الأخرى، فارتدت زوجًا من أقراط اللؤلؤ. كان العرض قد بدأ حال وصولهم، وارتفع لهاث وصياح حشد بحجم البحر داخل خيمة كبيرة، أمّا الحشد الثاني الّذي فشل في الدخول، فقد تزاحم في الضواحي. الدخول لم يمثّل مشكلة للسيدات من الشانزلزيه: فقد شقّ لهن شرطيّ صديق سبيلاً وأفسح لهن مجالاً للقعود على دكّة تُشرف تمامًا على الحلبة، وبدا الارتباك على الريفيين المحيطين بهن حين وجدوا أنفسهم بصحبة تلك الرفقة الأنيقة، فحملقوا بحياء في أظافر بيبي المطليّة، وحجر الراين المشبوك في شعر روسيتا، والوهج المنبعث من قرطي أوتيلي اللؤلئيين. عموماً، كان العرض مثيراً وسرعان ما صارت السيدات منسيات، وقد ضايق بيبي هذا، ودارت عيناها في محجريهما بحثاً عن نظرات مسترقة صوبهن. بغتة لكزت أوتيلي. «أوتيلي،» قالت، «لديك معجب: انظري إلى الولد هناك، إنّه يحدّق فيك كأنّك مشروب بارد.»
في البدء، ظنّته أحداً تعرفه؛ لأنّه كان ينظر إليها بطريقة توحي بأنها تعرفه مسبقًا، لكن كيف تعرفه وهي التي لم تعرف شاباً قط على ذلك القدر من الوسامة، وله تلك الساقين الطويلتين والأذنين

المنمنمتين؟ وقدّرت أنّه من الجبال: قبّعته الريفية المصنوعة من القشّ، وقميصه الثقيل الّذي بهتت زُرقته أخبراها بذلك تقريباً. لبشرته لون الزنجبيل، فهي مُشرقة كليمونة، ومصقولة مثل ورقة جوافة. أمّا جبينه فمتغطرسة مثل الديك الأسود القرمزيّ الّذي أمسكه بيديه. في العادة، كانت تبتسم أوتيلي بجرأة للرجال، لكن ابتسامتها تشظّت الآن، وتشبّثت بشفتيها مثل فُتات كعكة.
لاحقًا، أُعلن عن استراحة؛ فخلت ساحة المنافسة إلا ممّن استطاع التزاحم للرقص في وسطها وإلّا داسته الأقدام. ثمّة أوركسترا من الطبول والآلات الوتريّة تعزف ألحان الكرنفال. اقترب الشاب من أوتيلي التي ضحكت لرؤية ديْكهُ جاثماً على كتفه مثل ببغاء. «أفٍّ لكِ،» قالت بيبي وقد أغضبها أن فلّاحاً طلب من أوتيلي مراقصته، ونهضت روسيتا متوعّدة لتحول بين صديقتها والشاب الّذي اكتفى بالابتسام وقال: «أرجوك يا مدام، أرغب في الحديث مع ابنتك.» أحسّت أوتيلي بنفسها مرفوعة، والتصقت أوراكهما على إيقاع الموسيقى، فلم تمانع أبداً، بل تركته يقودها داخل الحشد المتشابك من الراقصين. قالت روسيتا: «هل سمعتِه، لقد اعتقد أنّي أمّها!» وقالت بيبي بشراسة لتواسيها: «عموماً، ماذا تتوقعين؟ إنّهما محض ريفيّان، كلاهما: حين تعود سنتظاهر بأنّنا لا نعرفها.»
بعد ما حدث، لم تعد أوتيلي إلى صديقتيها. ورويال، هكذا كان اسم الشاب، رويال بونابرته، صارحها أنّه لم يقصد الرّقص، بل أن يتنزّها في مكان هادئ. ثم تابع: «أمسكي بكفّي وسأنطلق بك.» فكّرت أنّه غريب عنها، لكن دون أن تشعر بالغربة معه؛ لأنّ الجبال كانت لا تزال في داخلها، وهو من الجبال. غادرا الخيمة بكفّين متعانقين،

والدّيك ذو الألوان القزحيّة يتمايل على كتفه. تسكّعا ببطء عبر طريق مدلهمّ، ثمّ على طول زقاق هادئ ترفرف فيه طيور الصباح عبر خُضرة أشجار السّنط المائلة.
كاشفها بحزنه رغم مظهره الّذي يخفي هذا الحزن. قال: «جونو هو البطل في قريتي، لكن الديوك هنا شرسة وقبيحة، ولو سمحتُ له بالمصارعة فكلّ ما سأحصل عليه هو ديك ميت، لذا سأعود به إلى البيت وأقول أنّه فاز. أوتيلي، هل لك ببعض السعوط؟»
عطست بشهوانيّة. ذكّرها السعوط بطفولتها وما كانت عليه تلك السنوات، فتاقت إلى تحريكها بالعصا الطويلة. «رويال،» قالت أوتيلي «أمهلني دقيقة، أريد أن أخلع حذائي.»
لم يكن رويال نفسه يلبس حذاءً، وكانت أصابعه الشقراء نحيلة ورشيقة، والبصمات التي تخلفها تشبه آثار حيوان مرهف. قال: «كيف يتأتى أن أجدك هنا، على اتّساع هذا العالم، هنا، حيث لا شيء صالح، وشراب الروم فاسد، والناس لصوص؟ لِمَ أعثر عليك هنا يا أوتيلي؟»
«لأنّي لابد أن أشقّ طريقي، تماماً مثلك، وها هنا مكان لي. أشتغل في..– آه، أوتيل ما.»
«لدينا عشّنا الخاص،» قال: «جانب كامل لأحد التلال، وهناك على قمة التل بيتي الهادئ. هل تجيئين يا أوتيلي وتسكنين فيه؟»
«مجنون،» قالت أوتيلي لتغيظه: «مجنون،» وركضت بين الأشجار، فجرى خلفها وذراعاه مفرودتان كأنه ممسك بشبكة، وبسط الديك جونو جناحيه وصاح وطار إلى الأرض. أثارت أقدامهما طقطقة الأوراق من تحتهما، وتحرّكت الطحالب الوبريّة

بينهما بخفّة عبر الفيء والظلال. وبغتة، داخل حجاب من نباتات السرخس، أحسّت بشوكة تنغرس في كعبها. جفلت حين سحب رويال الشوكة، وقَبّلَ مكانها، ثم تحرّكت شفتاه إلى يدها، ثم رقبتها، فشعرت كأنها تمتطي أوراقاً تطفو. تنفّست رائحته المبهمة النظيفة الأشبه بجذور الأشياء، بنبات الغرنوقي، بالأشجار الضخمة.

يكفي الآن. هكذا قالت ضارعة، رغم أنّها لم تكتفِ حقّاً: كل ما في الأمر أنّه بعد قضاء ساعة معه أحسّت أنّ قلبها على وشك التوقّف. فهدأ، وأراح رأسه المشعر المدغدغ فوق قلبها، فهشّت الناموس الّذي تجمّع حول عينيه الناعستين، وقالت للدّيك جونو «هُسّ!» وقد وثب بالجوار يصيح نحو السماء.

رأت أوتيلي وهي ترقد هناك عدوّها القديم، النحل. في صمت، في صفٍ يشبه النمل، كانت النحلات تزحف داخلةً جذع شجرة مكسور وخارجةً منه، ليس بعيداً عنها، فحرّرت نفسها من ذراعي رويال ورتبت مكاناً على الأرض لرأسه. كانت يداها ترتجفان وهي تضعها في طريق النحل، لكن الأولى التي جاءت بقربها تعثّرت في راحتها، وحين أطبقت أصابعها لم تتحرك لإيذائها، عدّت إلى العشرة، فقط للتأكد، ثمّ فتحت يدها، والنحلة، في أقواس لولبية، تسلّقت الهواء مصدرةً أزيزًا مبهجًا.

* * *

أفضت المالكة لبيبي وروسيتا بشيء من النصيحة: «أتركاها لحالها، أطلقا سراحها، ما هي إلا أسابيع قليلة وتعود.» كانت تتكلّم بهدوءِ من تلقّى هزيمة. لقد أعطتها أفضل غرفة في البيت لتبقيها معها،

وسِنًّا ذهبيّة جديدة، وكاميرا كوداك، ومروحة كهربيّة، لكن أوتيلي لم تتردّد، بل راحت ترصّ مقتنياتها في صندوق كرتونيّ. حاولت بيبي مساعدتها، لكنها كانت تبكي كثيرًا لدرجة اضطرت معها أوتيلي لإيقافها: «إن هذا يجلب سوء الحظّ؛ فكل تلك الدموع تنهمر فوق لوازم عروس!» وأردفت لروسيتا: «حريٌّ بكِ يا روسيتا أن تسعدي لأجلي بدلاً من الوقوف هناك تفركين كفّيك.»

مرّ يومان وحسب على مصارعة الدّيكة، وكان رويال يحمل صندوق أوتيلي على كتفه ويمشي برفقتها في الغسق جهة الجبال. وشدّ كثيرٌ من الزبائن رِحالهم إلى مكان آخر حين علموا أن أوتيلي غادرت الشانزلزيه. أمّا الآخرون، من فكّروا بالبقاء أوفياء للمكان القديم، فقد تذمّروا من جهامة حلّت في الجوّ: مرّت بعض الليالي دون أن تجد السيّدات من يشتري لأيّ منهن بيرةً سوى بشقّ الأنفس. ومع مرور الأيّام، ساد شعور بأن أوتيلي، رغم كل شيء، لن تعود. وبعد مرور ستة أشهر قالت المالكة: «لابد أنّها ماتت.»

* * *

كان بيت رويال يشبه بيتاً من الزهور؛ وقد عرّشت الكروم على السقف، وستارة منها ظلّلت النافذة، وثمّة زنبق تفتّح عند الباب. يستطيع المرء من خلال النوافذ أن يرى التماعات خافتة للبحر، فالبيت مبني على قمة تلّ، ولهذا أيضًا تبدو الشمس متقدة لكن ظلالها باردة. داخل البيت مُعتم دائماً ومنعش، ويصدر حفيف عن الصحف الخضراء القرنفلية التي تغطّي الجدران. ثمّة غرفة واحدة، فيها موقد ومرآة مُتأرجحة تعلو طاولة رخام، وسرير نحاسيّ

يتّسع لثلاثة رجال بدناء.
لكن أوتيلي لم تنم فوق السرير المهيب؛ لأنّه لم يكن مسموحاً لها حتى القعود عليه؛ كان ملكاً لجدّة رويال، العجوز بونابرته. مخلوقة متفخّمة متورّمة، مقوّسة الساقين مثل الأقزام، وصلعاء مثل صقر. كانت العجوز بونابرته هي الأكثر احترامًا على مدى أميال في الجوار كصانعة رُقىً، وكثيرون يخشون حتى أن يقع ظلها فوقهم، بمن فيهم رويال الّذي يحترس منها. لقد تأتأ بلسانه وتعثّر في الكلام وهو يخبرها بأنّه جلب إلى البيت زوجة، ثم جرّ أوتيلي ناحيتها. خدشتها المرأة العجوز هنا وهناك ببعض القرصات القاسية، وأبلغت حفيدها أن العروس نحيلة جداً: «ستموت جراء نحافتها قبل أيّ شيء!»
كل ليلة، كان الزوجان الشابان ينتظران طويلًا قبل أن يتطارحا الغرام، عندما يظنّا أن العجوز بونابرته قد خلدت إلى النوم. كانا يتمدّدان أحيانًا فوق تلّة القشّ المُقمرة في الخارج، حيث ينامان، بينما تشعر أوتيلي أنها مُتأكدة من أن العجوز بونابرته مستيقظة وتراقبهما. ذات مرّة، رأت عينًا مفتونةً دَبِقة تلمع في الظلام، ولم يكن ثمّة فائدة من الشكوى إلى رويال، الّذي يكتفي بالضحك: «ما الأذى من امرأة عجوز رأت الكثير في حياتها، وترغب في رؤية المزيد؟»
ولأنّها أحبّت رويال، نحّت أوتيلي كل شكاياها وحاولت ألّا تثير استياء العجوز بونابرته. لقد عرفت السعادة وقتاً طويلاً، ولم تفتقد صديقتها ولا الحياة في بورتوبرنس. ومع ذلك، احتفظت بتذكاراتها من تلك الأيام في ملاذ آمن: رتقت الفساتين الحريريّة بمحتويات سلّة الحياكة التي أعطتها لها بيبي كهديّة زواج، واحتفظت بجوارب

الحرير الأخضر التي لا تلبسها الآن بتاتًا؛ فلا مكان ملائم للبسها: ليس غير الرجال من يحتشد في المقهى الموجود في القرية عند مصارعة الديكة، وحين ترغب النساء في التلاقي فإنهن يتقابلن عند مجرى الغسيل. سوى أن أوتيلي كانت بالغة الانشغال فلم تشعر بالوحشة، ففي الفجر تجمع أوراق الكينا لتشعل ناراً وتعدّ الفطور.. وثمّة دجاجات تُطعمها، ومعزاة تحلبها، بينما العجوز بونابرته تئن طلباً للعناية. هناك دلوٌ تملأه ثلاث مرّات يوميًا أو أربع بماء الشرب، ثم تحمله إلى مكان عمل رويال في حقول القصب على بُعد ميلٍ انحدارًا من البيت، ولم يُبغضها أنّه في تلك الزيارات يكون فظّاً معها: فهي تعلم أنّه يتباهى أمام الرجال الآخرين ممّن يعملون في الحقول، والّذين يبتسمون لها كأنّهم بطّيخات مشقوقة. لكن في الليل، وحين تستحوذ عليه في البيت، تجذبه من أذنه وتعاتبه لأنّه عاملها مثل كلبة، وفي ظُلمة الفناء حيث تتوهج اليراعات، يمسكها ويهمس في أذنها بأمور تجعلها تبتسم.

كان قد مضى على زواجهما خمسة أشهر حين بدأ رويال في ممارسة الأمور التي اعتادها قبل زواجه، الآخرون من الرجال يذهبون إلى المقهى في الأمسيات ويمكثون آحاداً كاملة في مصارعة الديكة- وقد عجز عن فهم السبب وراء هياج أوتيلي حيال ذلك، سوى أنّها قالت أنّه لا يملك الحقّ في مسلكه هذا، وأنّه لو كان يحبها ما كان ليتركها وحيدة يوماً وليلة مع تلك المرأة العجوز الشريرة. «أحبّك،» ردّ رويال: «لكن لابد أن يحصل الرجل على مُتعه أيضاً.» مرّت ليال وهو يمتّع نفسه حتى يصير القمر في منتصف السماء، ولم تكن تعرف بتاتًا متى يعود إلى للبيت، وكانت تستلقي يأكلها الغيظ فوق

القشّ، لا تتخيّل كيف تنام دون أن يحيطها بذراعيه.

سوى أن العجوز بونابرته كانت هي مصدر العذاب الحقيقي. فقد أوشكت أن تُفقد أوتيلي صوابها؛ لو طبخت أوتيلي فإنّ المرأة العجوز البغيضة يقيناً ستجيء لتفتّش بفضول بالقرب من الموقد، وحين لا يعجبها ما تطبخه كانت تملأ فمها وتبصق فوق الأرضيّة. تقوم بأيّ فوضى تخطر على بالها: تبلّل الفراش، وتصرّ على اصطحاب المعزى في الحجرة، وكلّ ما تلمسه سرعان ما يسقط أو ينكسر، ثمّ تشتكي لروِيال أن امرأةً تعجز عن تدبير منزلها لأجل زوجها هي امرأة لا نفع يُرجى منها. كانت تحت قدمها طيلة اليوم، بينما عيناها القاسيتان الحمراوان مستيقظتان دومًا، غير أن الطامة الكُبرى، الأمر الّذي دفع أوتيلي في النهاية إلى التهديد بقتلها، هو عادة المرأة العجوز في التسلّل من أيّ مكان وقرصها بشراسة لدرجة تستطيع معها رؤية آثار أظافرها المغروسة. «لو فعلتِ ذلك مرّة أخرى، لو فقط جرؤت، سأخطف تلك السكين وأنتزع بها قلبك!» وكانت بونابرته تعي أن أوتيلي تعني ما قالته، ورغم أنّها كفّت عن القرص غير أنّها فكّرت في دُعابات أخرى. مثلاً، تصنع لها ممشىً في أيّ جزء شاءت من الفناء، متظاهرةً أنّها لا تعلم أن أوتيلي قد غرست بستاناً صغيراً هنا أو هناك.

وفي يوم واحد، حدث أمران استثنائيّان. جاء صبيّ من القرية يحمل رسالة لأوتيلي على البطاقات البريدية للشانزلزيه، والتي تجيء بين الحين والآخر من البحّارة والرحّالة الّذين قضوا لحظات سارة برفقتها. لكنّها الرسالة الأولى التي تتلقاها منذ زمن بعيد. ولأنّها لا تستطيع القراءة، فقد كان أول خاطر لها هو أن تمزّقها: فلا فائدة

تُرجى من الاحتفاظ بها لتقضّ مضجعها. بينما هنالك فرصة طبعاً لأن تتعلم القراءة يوماً ما، ولهذا راحت تخبئها في سلّة الحياكة.
لدى فتحها سلّة الحياكة، توصّلت لاكتشاف شرّير: وجدت ما يشبه كُرة مُخيفة من الغزل، رأس مفصولة لقطّة صفراء. وهكذا كانت المرأة العجوز البائسة توشك على القيام بألاعيب جديدة! ترغب بصياغة رُقية بأقصى ما يُمكن لها من رعب، هذا ما فكّرت به أوتيلي. في البداية رفعت الرأس من أحد أذنيه وحملته إلى الموقد وألقت به في قدر يغلي: عند الأصيل، مصمصت العجوز بونابرته شفتيها وعلّقت أن الحساء الّذي أعدته أوتيلي لأجلها كان لذيذاً على نحو مُذهل.
في الصباح التالي، في وقت وجبة الغداء بالضبط، عثرت فيما تقلّب في سلّة الحياكة على ثعبان أخضر صغير، فما كان منها إلا أن جعلته مفتّتًا مثل حبّات الرمل، وفرشته فوق بعض اليخنة. هكذا في كل يوم كانت براعتها تُختبر: عناكب لتُخبز، سحليّة لتُقلى، صدر صقر ليُسلق، وقد أكلت العجوز بونابرته عدّة وجبات من كل شيء. وبتألّق لا يهدأ لاحقت عيناها أوتيلي وهي تتربّص لأجل أيّة إشارة على أن الرُقية تترسّخ، وقالت: «تبدين شاحبة يا أوتيلي،» مازجةً القليل من دبس السكّر في صوتها، «تأكلين مثل نملة: ما رأيك الآن في وعاء من هذا الحساء الطيب؟»
ردّت أوتيلي هادئّة: «لأنّي لا أحبّ مذاق الصقور في حسائي، ولا العناكب في خبزي، ولا الثعابين في اليخنة. مثل هذه الأشياء لا تثير شهيّتي.»
فهمت العجوز بونابرته ما قصدته، فنهضت بأوردة منتفخة،

ولسان مشلول مُبتلى، تتداعى على قدميها نحو أوتيلي، ثمَ انهارت فوق الطاولة. وقبل أن يحلّ الغروب، كانت قد ماتت.
جمع رويال النادبات اللائي قدمن من القرية والتلال المجاورة، ينبحنَ مثل الكلاب في منتصف الليل، وتحلقن حول البيت. النساء العجائز منهن لطمن رؤوسهن بالجدران، والرجال المنتحبون عفّروا رؤوسهم بالتراب: إنّه فنّ الحزن، وهؤلاء الّذين اندمجوا في محاكاة الحزن أكثر نالوا الإعجاب الأكبر. بعد الجنازة تفرّق الجميع، راضين عمّا أنجزوه من عمل صالح.
صار البيت الآن ملك أوتيلي وحدها، دون حملقات العجوز بونابرته، ولا فوضاها التي تنتظر التنظيف. لديها متّسع من الوقت لعملها، لكنّ الوقت فاض عليها فلم تعرف أين تنفقه. تسلّقت بجهد السرير النحاسي الهائل، وتسكّعت أمام المرآة. لكن الرتابة همهمت في رأسها؛ وكي تُبعد طنينها الطائر، كانت تدندن أغنيات كانت قد تعلّمتها من الفونوغراف في الشانزلزيه. تستعيد الذكريات بينما تنتظر عودة رويال عند الغسق، تتذكّر أنّه في تلك الساعة كانت صديقتاها في بورتوبرنس تثرثران في الرواق منتظرتين انعطافة المصابيح الأماميّة لسيّارة ما، سوى أنّها حين رأت رويال يتسلّق الطريق متمهلاً، ومنجله يتأرجح حول خاصرته مثل هلال، نسيت تلك الأفكار وركضت بقلبٍ راض للقائه.
وفي أحدي الليالي، وبينما هما يرقدان نصف غافيين، أحسّت أوتيلي بغتة بحضور آخر في الغرفة، ثمّ كانت ومضة هناك أسفل السرير، ورأت، كما رأت قبلاً، عينًا تراقب، فعرفت ما ارتابت منه بعض الوقت: إن العجوز بونابرته ماتت لكنها لم ترحل. مرّة كانت

وحدها في البيت وسمعت ضحكةً، ومرّة أخرى، في الفناء، رأت كبشاً يحملق في شخص ما لم يكن موجوداً، وطَرَفَ بأذنيه كما يفعل دائماً متى هرشت المرأة العجوز رأسه.

قال رويال: «كفّي عن هزّ السرير» بينما أوتيلي، بأصبع مرفوع إلى عينها، تسأل هامسة إذا ما كان لا يراها. أجاب أنّها كانت تحلم، فمدّت يدها صوب العين وصرخت بمجرّد إحساسها بالهواء. أنار رويال مصباحاً وضمّ أوتيلي إلى حضنه، ومسّد شعرها بينما تحكي له عن الاكتشافات التي صادفتها في سلّة الحياكة وكيف استخدمتها. هل كان ما فعلته خطأ؟ رويال لا يعرف، ولم يكن له أن يُفصح، لكن رأيه كان أنّه من الضروريّ معاقبتها. لماذا؟ لأنّ المرأة العجوز أرادت ذلك، وإلا لن تترك أوتيلي في سلام أبداً، فهكذا يكون الحال مع الممسوسين.

وهكذا، جلب رويال حبلاً في الصباح التالي، يعتزم به ربط أوتيلي بشجرة في الفناء، لتبقى هناك حتى يحلّ الظلام دون أكل أو شرب، وليعرف المارةَ أنّها مَخْزِيَة.

لكن أوتيلي زحفت تحت السرير ورفضت الخروج. وقالت متشنجة: «سأهرب يا رويال، لو حاولت ربطي بتلك الشجرة العتيقة سأهرب.»

ردّ رويال: «ساعتها سأضطر للحاق بك وإمساكك، ولكان ذلك أسوأ ما يحدث لك.»

جرّها من كاحلها ودحرجها من تحت السرير وهي تطلق صرخات حادة. كانت تتشبّث طيلة المسافة إلى الفناء بكل ما يصل إلى يديها: الباب، الكرمة، لحية كبش، لكن دون فائدة.. ولم يعق رويال شيء

عن ربطها بالشجرة. صنع ثلاث عُقد في الحبل وانصرف للشغل يلعق يده مكان ما عضّته. سبّته بأقذع السّباب التي سمعتها في حياتها حتى اختفى وراء التلّ. والتمّ الكبش وجونو والفراخ يحدّقون في إذلالها، فانحنت أوتيلي قريباً من الأرض وأخرجت لهم لسانها.

* * *

لأنّها كانت نائمة تقريبًا، فقد ظنّت أوتيلي أنّها تحلم حين ترنّحت بيبي وروسيتا برفقة طفل من القرية، تتمايلان في كعوب عالية وتحملان مظلّتين مُزخرفتين، متسلّقتين الطريق وتناديان باسمها. ولأنّهما امرأتان في حلم، فمن المحتمل أنّهما ما كانتا لتندهشا لدى رؤيتها مربوطة في شجرة.

صرخت بيبي: «هل جننتِ؟» وهي تحتفظ بمسافة مناسبة بينهما، كأنّها خشيت فعلاً أن تكون مريضة. «تحدّثي إلينا يا أوتيلي!»

قالت أوتيلي وهي تطرف وتقهقه: «أنا فقط سعيدة لرؤيتكما. روسيتا، أرجوكِ فكّي وثاقي لأتمكّن من احتضانكما.»

«إذن هذا ما يفعله هذا الهمجي!» قالت روسيتا وهي تمزّق الحبال: «انتظري حتى أراه، يضربك ويربطك في الفناء مثل كلبة!»

ردّت أوتيلي: «آه كلا. رويال لم يضربني قط. هذه أوّل مرّة.. اليوم فقط.»

«ما كنتِ لتنصتي لنا» قالت بيبي: «وها أنت الآن ترين العاقبة، هذا الرجل أمامه الكثير من الأسئلة ليجيب عنها،» مردفةً وهي تلوّح بمظلّتها مهدّدة.

عانقت أوتيلي صديقتيها وقبّلتهما، ثمّ قالت: «أليس بيتاً رائعاً؟»

وهي تقودهما إليه: «كأنّك انتقيت عربة زهور وابتنيت بها بيتاً.. هذا ما أتصوّره. تعالين بعيداً عن الشمس. إنّه بارد في الداخل ورائحته حلوّة.»

تشمّمت روسيتا الهواء، وكأنّ ما شمّته كان كريهًا، وأعلنت بصوتها العميق أن بلى، كان من الأفضل أن يبقين بعيداً عن الشمس، خصوصاً وأنّه يبدو أنّها قد تمكّنت من السّيطرة على عقل أوتيلي.

«نعمة كبيرة أنّا جئنا،» قالت بيبي، وهي تنقّب داخل حقيبة هائلة: «ويمكنك شكر السيد جيمسون لأجل هذا. لقد قالت المدام أنّك مُتِّ، وحين لم تُجيبي على رسائلنا اعتقدنا ذلك أيضاً، سوى أن السيد جيمسون، الرجل الأكثر رقّة ممّن قد تصادفينهم في حياتك، استأجر عربة لي ولروسيتا، أعزّ صديقاتك، من أجل تسلّق التلّ ومعرفة ما جرى لحبيبتنا أوتيلي. لديّ هنا زجاجة روم في حقيبتي يا أوتيلي، أحضري لنا كؤوسًا كي نشرب منه.»

أسكرت العادات الأنيقة والحليّ المبهرجة اللامعة للسيّدتين القادمتين من المدينة ذاك الصبيّ، مرشدهنّ الّذي كان صغيراً. أومأ بعينيه السوداوين اللتين تختلسان النظر صوب النافذة. وقد أحسّت أوتيلي بالتأثر، هي الأخرى، لأنّه مضى وقت طويل مُذ رأت شفاهًا مصبوغة أو شمّت زجاجة عطر. وفيما تصبّ بيبي الروم أخرجت حذاءها السّاتان وقرطيها اللؤلؤيّين. وقد قالت روسيتا حين أنهت أوتيلي لبسها: «عزيزاتي، ما من رجلٍ حيّ يرفض أن يشتري لكُنَّ برميلاً كاملاً من البيرة. فكّرن في ذلك! إن امرأة بهيّة مثلك لا شكّ تعاني بعيداً عن عشّاقها».

«لم أكن أعاني كثيراً،» ردّت أوتيلي، «بل قليلًا فحسب.»

قالت بيبي: «اسكتي الآن، لا ينبغي أن تتكلّمي عن ذلك بعد. وعموماً لقد انتهى كل شيء هنا. اقتربي منّي يا عزيزتي ودعيني أرى كوبك مرّة أخرى. نخب الأيام الخوالي، والأيام التي ستجيء! الليلة سيشتري السيد جيمسون شمبانيا للجميع: وستعطيها له المدام بنصف ثمنها.»

ردّت أوتيلي وهي تغبط صديقتيها: «آه، طيّب» وقد أرادت أن تعرف ما قاله الناس عنها، وهل يتذكّرونها؟

قالت بيبي: «ليس لديكِ فكرة يا أوتيليا، ما من رجل وقعت عيناي عليه في المكان إلا وسأل أين أوتيلي، لأنّه قد أُشيع عنك أنّك ذهبت إلى هافانا أو ميامي. أمّا جيمسون، فلم ينظر حتى إلينا نحن الأخريات، إنه يجيء ليجلس في الرواق ويشرب بمفرده وحسب».

قالت أوتيلي بتوق: «بلى، لطالما كان السيد جيمسون حلو المعشر معي.»

كانت الشمس الآن تميل نحو المغيب، ولم يبق في زجاجة الروم إلا ربعها. غمرت هبّة رعديّة من المطر التلالئ لوهلة، وقد شوهد وميضها من النوافذ كأجنحة تنّين طائر، وتجوّلت في الغرفة نسمة عَبِقة برائحة الزهور التي بلّلها المطر أحدثت حفيفاً من الأوراق القرنفلية الخضراء المُلصقة بالجدران. رُوي كثير من القصص، بعضها مَرِح وأقلّها حزين، مثل أحاديث الشانزلزيه كل ليلة، وكانت أوتيلي فَرِحَة لكونها جزءًا من ذلك مجددًا.

«الوقت تأخر» قالت بيبي: «وقد وعدنا بالعودة قبل منتصف الليل، أيمكننا يا أوتيلي أن نساعدك في حزم أغراضك؟»

برغم أنّها لم تدرك أن صديقتيها توقّعتا أن تغادر برفقتهما، إلا

أن الروم الّذي يعتمل بداخلها جعله احتمالا قائماً، وقد فكّرت بابتسامة على شفتيها: «قلت له أنّي سأهرب،» وتابعت بصوت عالٍ: «لكن هذا لا يشبه أن آخذ أسبوعاً مثلّا أسرّي فيه عن نفسي: وسيأتي رويال ليعيدني.»

ضحكت صديقتاها من هذا الكلام، وقالت بيبي: «ما أسخفك! أتمنّى أن أرى رويال هذا حين يفرغ رجالنا منه.»

«ما كنت لأطيق أن يؤذي أي شخص رويال» قالت أوتيلي: «فضلًا عن أن ثائرته ستثور حين نعود إلى البيت.»

ردّت بيبي: «لكن يا أوتيلي يُفترض بك ألا تعودي برفقته أبدًا!»

فقهقهت أوتيلي وتفحّصت الغرفة وكأنّها رأت شيئاً غير مرئي للآخرين، وقالت: «لِماذا؟ مؤكّد سأعود!»

دارت عيناها في محجريهما، فأحضرت بيبي مروحة وهزّتها أمام وجهها، وقالت وهي تكزّ على أسنانها: «هذا أغرب شيء سمعته في حياتي، أليس هذا أغرب شيء سمعتِه في حياتك يا روسيتا؟»

ردّت روسيتا: «هذا لأن كلام أوتيلي غير محسوب. عزيزتي، لِماذا لا ترقدين على الفراش بينما نحزم أغراضك؟»

راقبتهما أوتيلي يشرعان بتكديس مقتنياتها. غرَفَتَا أمشاطها ودبابيسها ولفّتا جواربها الحريرية، وقد خلعت ثيابها المُتأنّقة، كأنّها تستبدلها بلباس أفضل. لكن بدلاً من ذلك، انزلقت عائدة إلى ثيابها القديمة. ثمّ راحت في هدوء، وكأنها تساعد صديقتيها، تضع كل شيء في مكانه. لقد ركلت بيبي الأرض بقدمها حين رأت ما يجري.

قالت أوتيلي: «أنصتن، لو أنكما يا بيبي وأنت يا روسيتا صديقتاي حقّاً فأرجوكما افعلا ما أقوله: قيداني في الفناء تماماً كما جئتما:

فهكذا لن تلسعني نحلة أبداً.»

قالت بيبي: «سكّيرة كريهة.» لكن روسيتا قالت لها أن تصمت، وتابعت متنهدة: «أظنّ أوتيلي عاشقة، ولو أرادها رويال أن تعود، فستعود معه، هكذا كانت الأمور وهكذا سنعود إلى لبيت ونقول إنّ المدام كانت مُحقّة، لقد ماتت أوتيلي».

قالت أوتيلي: «بلى،» ولأنّ دراما الحدث راقت لها، أضافت: «أخبروهم أنّي مُتّ.»

وهكذا، خرجن إلى الفناء، بصدور لاهثة وعيون مدوّرة مثل قمر النهار المُنطلق فوقهن. قالت بيبي أنّها ما كانت لتشارك في ربط أوتيلي بالشجرة، الأمر الّذي جعل روسيتا تقوم بذلك وحدها. في لحظة الفراق، كانت أوتيلي أكثر من بكى، رغم سعادتها لرؤيتهما ترحلان؛ لأنّها تعي أنّه بمجرّد اختفائهما لن تفكّر بهما مرّة أخرى. أدارتا رأسيهما، وهما تتمايلان في كعوبهما العالية تهبطان منحدرات الطريق، لتلوّحا لها، لكن أوتيلي عجزت عن التلويح لهما، وهكذا نسيتهما قبل أن تغيبا عن نظرها.

أحسّت وهي تمضغ أوراق الكينا لتعطّر أنفاسها بقشعريرة الفجر تُرجف الهواء، وصُفرة تعمّق نور القمر، وطيور جاثمة تُبحر في ظُلمة الشجرة. وبغتة، تناهى إلى سمعها صوت رويال على الطريق، فأثنت ساقيها إلى خاصرتها، وتركت عنقها يترنّح، وأرخت عينيها للوراء في محجريهما. مشهد يبدو للقادم من بعيد وكأنّها خاضت نهاية عنيفة مُثيرة للرثاء، وقد فكرت فَرِحَة لدى سماعها خُطى رويال تتسارع لتصبح ركضًا: سيُفزعه مرآي هكذا أيّما فزع.

غيتار ماسيّ

تقع أقرب بلدة من مزرعة السّجن على مسافة عشرين ميلاً. تصطفّ بينهما أحراش سابغة من أشجار الصنوبر، حيث يقضي المحكوم عليهم بالأشغال الشاقّة وقتهم في استخراج زيت التّربنتين من الأشجار[20]. يقع السجن نفسه داخل غابة، وستجده في نهاية طريق مليء بالخُفَرِ الحمراء، تحوطه أسلاك شائكة كأنّها كروم معرّشة حول الجدران. في الداخل، يعيش مائة وتسعة رجال بيض، وسبعة وتسعون رجلًا زنجيًا، وصينيّ واحد. ثمّة نُزُلان للنوم، بنايتان خشبيّتان كبيرتان، دُهنتا بالأخضر وسُقفتا بالورق المُقيّر. يشغل الرجال البيض واحداً، والزنوج مع الصينيّ يشغلان الآخر. في كل نُزُل مَوْقدٌ يحوي قِدرًا مُجوّفًا هائلًا، سوى أن برودة الشتاء قاسية هنا، وفي الليل مع رفرفة أشجار الصنوبر المكسوّة بالصّقيع والنور البارد المسكوب من القمر، يرقد الرجال ممدّدين فوق أسرّتهم المعدنيّة يقظين بينما أطياف اللهب المشتعل في الموقد تتراقص في عيونهم.

الأسرّة الأقرب للموقد هي للرجال ذوي الأهمّية الّذين يتمتعون بالاحترام، أو للمرهوبين منهم، والسيد شيفر- هكذا يُدعى للإشارة إلى قَدْره العالي- واحد منهم. وهو رجل طويل نحيل، يشوبه الهُزال، وشعره فضّي محمرّ، وله وجه هزيل تكسوه أمارات التقوى، بينما يصل نحوله إلى درجة تمكّنك من رؤية عظامه، أمّا عيناه فمُجْدِبتان فاترتا اللون. يمكنه القراءة والكتابة وجمع عمود من الأرقام؛ لذا فحين يتسلّم أيّ رجل رسالة ما، فإنه يجيء بها للسيّد شيفر. ولأن أغلب تلك الرسائل حزينة ومتشكية، فإن السيد شيفر يعمد في

(20) زيت يُستخدم للعلاج ويُستخرج من أشجار الصنوبر. م.

أغلب الأوقات إلى ارتجال رسائل أكثر بهجة، فلا يقرأ المكتوب في الورقة. ثمّة رجلان آخران في النُزل يمكنهما القراءة، ومع ذلك، يأتي أحدهما برسائله للسيّد شيفر الّذي يضطر ألّا يقرأ الحقيقة أبداً. والسيّد شيفر نفسه لا يتلقّى بريداً من أحد، ولا حتى في عيد الميلاد؛ يبدو وكأنّ لا أصدقاء له وراء أسوار السجن، والحقيقة هي أنه لا أصدقاء له هناك– بمعنى صديق بعينه. هذه هي الحقيقة، لكنها ليست كاملة.

ذات يوم أحد شتوي، منذ عدّة سنوات، كان السيد شيفر جالسًا فوق أحد درجات سلّم النُزُل، ينحت دُمية، وهو بالغ المهارة في هذا، إذْ ينحت دُماه على أجزاء منفصلة ثمّ يجمعها بسلكٍ نابِض: الذراعان والساقان تتحركان والرأس يستدير. وما إن يفرغ من صنع بضع عشرة دُمية إلا ويحملها قائد المزرعة للبلدة حيث تُباع في المتاجر العامة، وهكذا يكسب السيد شيفر المال من أجل السكاكر والتبغ.

في يوم الأحد هذا، وهو جالس يقطّع الأصابع من أجل صنع كفٍّ صغيرة، توقّفت شاحنة في فناء السجن، وتسلّق شاب مُكبّل في اتجاه قائد المزرعة خارجَ الشاحنة، وانتصب يطرف بعينيه صوب شمس الشتاء الشبحيّة. ألقى عليه السيد شيفر نظرة خاطفة: كان رجلاً في الخمسين قضى منها سبعة عشر عاماً في المزرعة، ووصول سجين جديد ربما لا يثير انتباهه. في يوم الأحد يُطلَق سراح سجناء المزرعة، وقد تزاحم الرجال الآخرون الّذين ينظّفون الفناء بالقرب من الشاحنة، بعدئذٍ توقّف بيك آكس وجوبر بالقرب من السيد شيفر وراحا يتكلّمان.

قال بيك آكس: «إنّه أجنبيّ، السّجين الجديد. من كوبا، لكن شعره أصفر.»
وعقّب جوبر: «محترف في الضرب بالسكاكين، هكذا قال الكابتن» كان جوبر نفسه ضارب سكاكين أيضًا، وقد تابع: «لقد شرّح بحّارًا في موبيل.»
قال بيك آكس: «بل اثنان، لكنها كانت مشاجرة في مقهى، ولم يؤذهما»
علّق جوبر: «أتسمّي قطع أذن رجل ملاطفة؟ لقد حكموا عليه بسنتين كما قال الكابتن»
قال بيك آكس: «عموماً هو يحمل غيتاراً مرصّعاً بالحليّ لا يفارقه.»
كان الظّلام قد حلّ وبات العمل صعباً، فلاءَمَ السيد شيفر بين أجزاء الدُميّة ثمّ أجلسها فوق ركبته ممسكاً بكفّيها الصغيرتين، ثمّ لفّ سيجارة. كانت أشجار الصنوبر مزرقّة في ضوء الغروب، وقد تهادى الدخان المُتصاعد من سيجارته في الهواء المكفهرّ البارد. استطاع رؤية الكابتن آتيًا عبر المزرعة، وقد تباطأ السجين وراءه بخطوة، يحمل غيتاراً مرصّعاً بماسات زجاجية تشكّل وميضاً شبيهاً بلمعان النجوم، وقد بدا رداء السّجن عليه واسعًا جداً، كأنّه رداء عيد القديسين.
توقّف الكابتن عند درجات سلّم النُزُل وقال: «هذه رفقة جديدة لأجلك يا شيفر» لم يكن الكابتن رجلاً قاسياً، فهو يدعو السيد شيفر أحيانًا إلى مكتبه. يتكلمان سوياً عن أمور قرآ عنها في الصحيفة. قال: «تيكو فيو» كأنّه اسم طائر أو أغنية، «وهذا هو السيد شيفر، إقْتَدِ به لتفلح.»

رفع السيد شيفر بصره صوب الصبيّ وابتسم، وطالت ابتسامته أكثر ممّا قصد: بسبب عيني الصبيّ الشبيهتين بقشور من السماء– زرقاء تشبه مساءً شتويًا– وشعره الذهبيّ مثل أسنان الكابتن. له وجهٌ محبّب نبيهٌ رشيق. ناظرًا إليه، استعاد السيّد شيفر ذكريات الأعياد والأوقات الممتعة.

قال تيكو فيو: «تشبه شقيقتي الصغيرة» وهو يمسّ دُمية السيد شيفر مسّاً خفيفاً. كان صوته بنبرته الكوبيّة ناعماً وحلواً مثل موزة، وتابع: «هي الأخرى تجلس فوق ركبتي.»

جَفَلَ السيد شيفر بغتة، وانحنى للكابتن ثمّ غاب في ظُلمة الفناء وانتصب هناك يهمس بأسماء النجوم في الأعلى وقد تكشّفت عن وردة في السماء. كانت النجوم مصدر سعادته، لكنها الليلة لا تُعزّيه، لا تجعله يتذكّر أن ما يحدث لنا على الأرض يضيع في التألق اللانهائي للأبديّة. فكّر– وهو يحدّق في النجوم، بالغيتار المرصّع بالجواهر وبريقه الدنيويّ.

يُمكن القول عن السيد شيفر أنّه في حياته كلها لم يقترف سوى ذنب حقيقي واحد: قَتَلَ رجلاً، بينما ظروف هذا الصنيع لا تهمّ إلا للحكم بأن هذا الرجل قد استحق الموت الّذي عوقب لأجله السيد شيفر بتسع وتسعين سنة ويومٍ واحد. ولفترة طويلة– في الواقع، لسنوات كثيرة– لم يُفكّر قط في حياته قبل أن يأتي إلى سجن المزرعة. ذكرياته عن تلك الأيام تُشبه بيتاً مهجوراً وقد تعفّن أثاثه. لكن الليلة بدت كأنّ مصابيح أُنيرت عبر أرجاء الحجرات الميّتة الكئيبة. بدأ هذا في الحدوث حين رأى تيكو فيو يأتي خلال الغَسَق يحمل غيتاره الرائع، وهو الّذي كان حتى تلك اللحظة يشعر

بالوحشة، الآن–مُدركاً عُزلته– أحسّ بالحياة تدبّ في أوصاله. كان يكره أن تدبّ فيه الحياة؛ فهذا يعني أن يذكر أنهاراً سمراء تسبح فيها الأسماك، ونور الشمس يتألّق فوق شعر امرأة.

نكّس السيد شيفر دماغه؛ فسطوع النجوم جعل عينيه تدمعان. في العادة، يكون النُزل مكاناً مُكتئباً، مبتذلًا برائحة الرجال ومقفرًا في ضوء مصباحين كهربائيين مكشوفين، لكن مع حلول تيكو فيو بدا كأنّ حادثة استوائية قد وقعت في الحجرة الباردة. فحين عاد السيد شيفر من تأملاته للنجوم صادف مشهداً متوهجاً وجامحًا؛ تيكو فيو جالساً يضع ساقاً فوق ساق على حافة سرير نقّال، وينقر بأصابع طويلة مثنيّة على الغيتار، ويغني أغنية تراءت له مرحة كأنّها جلجلة القروش المعدنيّة. وبرغم أن الأغنية باللغة الأسبانية فإن بعض الرجال حاولوا غناءها بصحبته، ورقص بيك آكس وجوبر سويًا. لقد رقص شارلي ووينك أيضاً لكن منفصلين، وكان من الجميل سماع الرجال يضحكون. وحتى نحّى تيكو فيو غيتاره جانباً في النهاية، كان السيد شيفر بين من هَنّئوه.

قال: «إنّك تستحق غيتاراً رائعاً كهذا.»

ردَ تيكو فيو: «إنّه غيتار ماسّي» مُزيحاً يده عن لمعانها، «مرّة كان عندي غيتار مُرصّع بالياقوت، لكنه سُرِق. في هافانا تشتغل شقيقتي في، كيف تقولها، حيث يصنعون الغيتار، ولهذا أمتلك هذا الغيتار.»

سأله السيد شيفر عن عدد شقيقاته، وقد ابتسم تيكو فيو رافعاً أربعة أصابع، ثمّ ضاقت عيناه الزرقاوان بشراهة، وقال: «لو تفضّلت يا سيدي، هلّا أعطيتني دُميةً لشقيقتي الصغرى الثانية؟»

في المساء التالي، أعطاه السيد شيفر الدُمى، وصارا بذلك صديقين مُقربين ودائماً ما يكونان سوياً، وطيلة الوقت يرعى كلّ منها الآخر. كان تيكو فيو في الثامنة عشرة من عمره، وقد عمل سنتين على ظهر سفينة شحن في البحر الكاريبي. في طفولته ارتاد المدرسة بصحبة راهبات وعلّق صليباً حول عنقه. كانت لديه مسبحة أيضاً، حفظها ملفوفة في شالٍ حريريّ أخضر ضمّ ثلاثة كنوز أخرى: زجاجة كولونيا من نوع «المساء الباريسي،» ومرآة جيب، وخارطة راند ماكنالي للعالم[21]. كانت تلك فضلًا عن الغيتار كل ممتلكاته، وما كان ليسمح لأحد بلمسها، سوى أنه ربّما أعار خارطته لمن احتاجها مرّات قليلة. في الليل، وقبل إطفاء الأنوار، كان ينشر خارطته ويُري السيد شيفر الأماكن التي حلّ بها–غالفستون، وميامي، ونيوأورليانز، وموبيل، وكوبا، وهاييتي، وجمايكا، وبورتوريكو، والجُزر العذراء– وكذلك الأماكن التي يتمنّى زيارتها. كان تقريباً يرغب في زيارة كل ركن من الأرض، خصوصاً مدريد، والقطب الشمالي، ممّا روّع السيد شيفر؛ لقد ساءه التفكير بتيكو فيو في عرض البحر وفي أماكن بعيدة، وأحياناً ما نظر لصديقه بطريقةِ من يَحمي نفسه، وفكّر: ما أنت إلّا حالمٌ كسول.

وهذا صحيح، فقد كان تيكو فيو رفيقاً كسولاً. وبعد تلك الليلة الأولى لم يكن حتى ليعزف على غيتاره إلا تحت إلحاح. وحين يأتي الحارس فجرًا لإيقاظ الرجال بقرع مطرقة على الموقد، كان تيكو فيو يتذمّر كطفل. أحياناً كان يتظاهر بالمرض فيئن ويفرك معدته، لكن دون جدوى، فالكابتن يرسله للعمل مع باقي الرجال في الخارج،

(21) Rand Mcnally: ناشر أميركي للخرائط والأطالس وكتب الترحال حول العالم. م.

ودائماً ما يوضع مع السيد شيفر في جماعة الطريق السريع. كان عملاً صعباً، الحفر في طين مُتجمّد ورفع أكياس خيشٍ مليئة بالصخر المكسور، فضلاً عن صُراخ الحارس المستمرّ في تيكو فيو الّذي يقضي أغلب الوقت في محاولة الاتكاء على أي شيء يصادفه. في كل أصيل، يجلس الصديقان معًا ويمرّ عليهما سطل الغداء. ثمّة بعض الأطعمة الطيّبة في غداء السيد شيفر، فهو يستطيع شراء التفاح والسكاكر من البلدة، وقد أحبّ إعطاءها لصديقه الّذي كان يستمتع بها أيّما مُتعة، وكان يفكّر: أنت تكبر، وأمامك وقت طويل حتى تصير رجلاً.

لكن لم يكن الجميع يحبون تيكو فيو؛ لأنّهم كانوا يغارون منه، أو لأسباب أكثر مكراً، والبعض حكى عنه قصصًا مروّعة، سوى أن تيكو فيو نفسه بدا غير مدرك لهذا. وحين يحتشدون حوله ويعزف على غيتاره ويغني أغانيه، كنت تراه يشعر بكونه محبوباً. شعر أغلبهم بحُبٍّ ما نحوه، فكانوا ينتظرونه ويتوقّفون خلال السّاعة الفاصلة بين العشاء وإطفاء الأنوار، هاتفين: «اعزف لنا شيئاً بغيتارك يا تيكو» لم يلحظوا أنّه بات يحمل حزنًا أعمق من الذي كان يحمله، وقد وثب النعاس وراءهم مثل أرنب وضاقت عيونهم يتمعّنون باللهب الّذي يصرّ وراء حاجز الموقد الحديدي. الوحيد الّذي كان يعي مشاعرهم المتضاربة هو السيد شيفر؛ لأنّه أحسّ بها هو الآخر، والسبب أن صديقه عايش الأنهار السمراء حيث تسبح الأسماك، بينما تتألق أشعة الشمس فوق شعور السيّدات.

وسرعان ما نال تيكو فيو شرف وضع سريره بالقرب من الموقد بجانب السيد شيفر الّذي كان يعرف دوماً أن صديقه كذّاب

مرعب. لم يكن لينصت للحقيقة في حكايات تيكو فيو عن مغامراته وفتوحاته ومناوشاته مع المشاهير، بل بالأحرى يسعد بها باعتبارها قصصاً خالصة كأنك تقرأها في مجلّة، وكان يبث الدفء في أوصاله سماع صوت صديقه الاستوائي يهمس في قلب الظلام.

وعدا أنّهما لن يتضامّا جسدياً أو يفكرا في ذلك، برغم أن مثل هذه الأمور لم تكن معروفة في المزرعة، فقد كانا كعاشقين. ومن بين كل الفصول، كان الربيع هو الفصل الأكثر إرهاقاً: سيقان النباتات تمتد مُغطّية قشرة الأرض التي منحها الشتاء صلابة، وأوراق غضّة تطقطق بازغة من الأغصان القديمة العارية، وريح ناعسة تجوب الخُضرة الوليدة. كان الأمر نفسه يجري مع السيد شيفر، سقوط ثمّ عضلات تنثني وقد اكتسبت تمرّساً.

كنّا في أواخر يناير، والصديقان قاعدان على درج النُزل، كل منهما يمسك سيجارة في يده. قمر نحيل أصفر يشبه قطعة من قشرة ليمون تقوّس فوق رأسيهما، وتحت ضيائه خيوط من صقيع أرضي تلألأت كآثار قوقع فضّي. كان تيكو فيو على مدى عدة أيام قد سقط أسيراً للعزلة—صامتاً مثل لصّ يقبع في الظلال، ولم يكن من الصائب أبداً أن تطلب منه العزف على غيتاره، فساعتها كان ليُحدّق بك بعينين غائمتين خاليتين من التعبير.

قال السيد شيفر، وقد توتّر، وتسرّب إلى نفسه إحساس بالضعف ألا يستطيع التواصل مع صديقه: «احكِ قصّة.. لتكن حين رُحت إلى حلبة السباق في ميامي.»

ردّ تيكو فيو: «لم أذهب قط إلى حلبة سباق» مُشيراً بذلك لكذبته الأكثر جموحاً، الكذبة التي تشمل مئات الدولارات ولقاء بينغ

كروسبي[22]، لكنه لم يُظهر اهتماماً، وبدلًا من ذلك أخرج مشطاً وراح يمشّط شعره عابساً. كان هذا المشط سببًا في مشاجرة شرسة منذ أيام قلائل: فأحد الرجال، وينك، ادّعى أن تيكو فيو قد سرق المشط منه، فردّ المتهم بأن بصق على وجهه، فتصارعا حتى تمكّن السيد شيفر ورجل آخر من فضّهما. هنا طلب تيكو فيو من السيد شيفر: «قل له إنّه مشطي»، لكن السيد شيفر قال بهدوء وثبات: «لا،» فهو ليس مشط صديقه–إجابة بدت مُحبطة لكل المُحيطين. «ويح له.. لو أنّه يريده إلى تلك الدرجة، حُبّاً لله، دع ابن العاهرة يحتفظ به» قال وينك، ولاحقاً بصوت متحيّر متردّد قال تيكو فيو: «كنت أظنّك صديقي» فكّر السيد شيفر: «بلى» دون أن ينبس بحرف.

«لم أذهب قط إلى حلبة سباق، وما قلت بشأن المرأة الأرملة لم يكن صحيحاً هو الآخر» ونفث دخان سيكارته عالياً بغضب محتدم ونظر إلى السيد شيفر بتمعّن وتابع: «قل لي، هل تملك مالاً يا سيدي؟»

أجاب السيد شيفر بحيرة: «ربما عشرون دولاراً» وقد تسرّب إليه خوف مما قد يؤدي إليه هذا الكلام.

قال تيكو فيو: «لا فائدة منها.. عشرون دولاراً!» دون أن يبدو عليه أيّ إحباط، وتابع: «عموماً لا يهم، سنتدبر الأمر. لديّ صديق في موبيل اسمه فريديركو، سيدبّر لنا قارباً، ولن يعيقنا شيء» بدا الجو وهو يتكلّم بهذا الكلام وكأنّه صار أبرد.

---

(22) ybsorC gniB (3091- 7791): مغني وممثل أمريكي شعبي ذاع صيته لأكثر من نصف قرن، بداية من 2691 حتّى وفاته. م.

أحسّ السيد شيفر بقلبه ينقبض، وعجز عن الكلام.
«لا أحد هنا يمكنه اللحاق بتيكو: إنّه الأسرع»
قال السيد شيفر: «البنادق أسرع» بصوت بالكاد تدبّ فيه الحياة، وتابع: «أنا عجوز جداً» وانتابه إدراك لعمره راح يزيد بداخله كأنّه غثيان.
لم يكن تيكو فيو ينصت، بل انتصب منتفضاً كحصان فتيّ: «ثمّ العالم. العالم، el mundo، يا صديقي» وقد بدا كأن العالم عند أطراف أصابعه–القمر، وصياح البوم. علت أنفاسه وتحولت إلى دخان في الهواء: «هل يجب أن نذهب إلى مدريد؟ ربما يعلّمني أحد هناك مصارعة الثيران، هل تظن ذلك يا سيدي؟»
لم يكن السيد شيفر ينصت له، فراح يردّد: «أنا عجوز جداً.. أنا عجوز لعين.»
ظلّ تيكو فيو ملازماً له طيلة الأسابيع التالية–العالم، el mundo، يا صديقي، وأراد أن يختفي، كان يغلق باب المرحاض عليه ويمسك برأسه، ومع ذلك، كان مستثاراً مُعذّباً بين القبول والرفض. ماذا لو كان من الممكن أن يتحقق الحلم، التباري مع تيكو عبر الأحراش وصولاً إلى البحر؟ وقد تخيّل نفسه في قارب وهو الّذي لم يرَ البحر قط، والّذي ارتبطت حياته تمامًا باليابسة. في تلك الأثناء لقي أحد المحكوم عليهم حتفه، وكان يمكنه سماع صوت صناعة التابوت في الفناء، ومع كل مسمار يُدَق كان السيد شيفر يفكر: «هذا لأجلي، إنّه لي.»
لم تكن معنويات تيك وفيو عالية أكثر منها في ذلك النهار، فقد كان يمشي متئداً بحيوية الراقص ورشاقة المُحترف، وكانت عنده نكتة

لأيّ أحد يحادثه. وبعد العشاء كانت أصابعه تنفجر بالعزف في النُّزل على غيتاره كمفرقعات ناريّة. علّم الرجال أن يصيحوا ole، وبعضهم طوّح قبعته في الهواء.

حين انتهى العمل على الطريق، أُعيد السيد شيفر وتيكو فيو إلى الأحراش، وفي عيد الحبّ أكلا طعامهما تحت شجرة صنوبر، وطلب السيد شيفر بضعة عشر برتقالة من البلدة، وقشّرها ببطء. كان القشر يتدلّى في شكلٍ حلزونيّ، وقد أعطى أكثر الفصوص امتلاءً بالعَصارة لصديقه، الّذي تباهى بالمسافة التي يمكنه بصق البذور إليها– مسافة عشرة أقدام رائعة!

كان يوماً جميلاً بارداً، امتدّت فيه أشعّة الشمس حولهما كأنّها فراشات، وقد أحسّ السيد شيفر الّذي أحبّ العمل في الأشجار بالضعف والسعادة، ثمّ قال تيكو فيو: «هذا الرجل، لا يمكنه الإمساك بذبابة في فمه» كان يعني أرمسترونغ، رجل له لغْد خنزير، جلس حاملاً بندقية تستند بين ساقيه. كان أحدث الحرّاس وجديدًا على العمل في المزرعة.

قال السيد شيفر: «لا أدري» كان قد انتبه لأرمسترونغ. ولاحظ، مثل كثير من الناس ممّن يجمعون بين البدانة والخِفّة، أن الحارس الجديد يتحرّك خفيفاً كالرّغوة، «ربما هو يستغفلك.»

ردّ تيكو فيو: «أو ربّما أستغفله أنا» وبصق بذرة برتقالة في اتجاه أرمسترونغ الّذي عبس في وجهه، ثمّ نفخ في صفارته إشارة لاستئناف العمل.

أحياناً، في الأصيل، يجتمع الصديقان مرّة أخرى؛ حين يثبّتان دلاء زيت التّربنتينة إلى الأشجار المتراصّة بمسامير. وهناك، على مسافة

أسفل الأشجار، خليجٌ صغير ضحل جار، يتشعّب خلال الغابة. غمغم تيكو فيو بوسوسة وكأنّه يتذكّر شيئاً سمعه: «لا رائحة يمكن تتبّعها في الماء.. سنركض فيها حتى يحلّ الظلام ثم نتسلّق شجرة، ما رأيك يا سيدي؟»

كان السيد شيفر قد انهمك بالطّرق، لكن يداه كانتا ترتعشان، وقد هوت المطرقة على إبهامه، فحملق في صديقه دائخاً دون أن يبدو على وجهه أيّ تعبير للألم، ولم يضع إبهامه في فمه كما يفعل الرجال في الغالب في المواقف المشابهة.

تراءت عينا تيكو فيو الزرقاوان وكأنّهما تورّمتا مثل الفقاقيع. وحين قال بصوت أكثر هدوءًا من صوت الريح عند قمم أشجار الصنوبر «غداً» كانت هاتان العينان كل ما قدر السيد شيفر على رؤيته.

«غداً يا سيدي؟»

قال السيد شيفر: «غداً.»

سقطت أوّل أطياف الصباح على جدران النُزل، وكان السيد شيفر الّذي استراح قليلاً، يعلم أن تيكو فيو كان صاحياً هو الآخر، وراح يراقب بعيني تمساح مرهقتين تحرّكات صديقه على السرير المجاور. كان تيكو فيو قد فَرَدَ الملاءة التي تضمّ كنوزه: في البدء تناول مرآة الجيب التي ارتجف نورها الضعيف على وجهه، ولبرهة انتابه الإعجاب بنفسه بفرحة حقيقية، فمشّط شعره ولمّعه كأنه يتهيّأ للخروج إلى حفلة. ثمّ علّق المسبحة حول عنقه. أمّا الكولونيا فلم يفتحها أبداً وكذلك الخارطة. وكان آخر ما فعله هو ضبطُ أوتار غيتاره. وهكذا، في حين كان الآخرون يلبسون، كان يجلس على حافة سريره يضبط الأوتار. لقد كان أمراً غريباً؛ لأنّه لابد أدرك

أنّه لن يعزف عليه مرّة أخرى أبداً.

رافق صراخُ الطيورِ الرجالَ خلال الغابات في الصباح الدخانيّ. مشوا في طوابير مُفردة، يصطفّ في كلّ منها خمسة عشر رجلاً يتبعهم حارس. كان السيّد شيفر يتعرّق وكأنّه في يوم حار جداً، وعجز عن ملاحقة خُطى صديقه الّذي مشى في الطليعة يطرقع أصابعه ويصفّر للطيور.

اتفقا على إشارة، مفادها أن يطلب تيكو فيو استراحةً قصيرة ويتظاهر بالذهاب وراء شجرة، سوى أن السيد شيفر لم يكن يعلم متى يُفترض بتلك الإشارة أن تحدث.

نفخ الحارس المسمّى أرمسترونغ في صافرته، فانفرط رجاله من طابورهم وانفصلوا إلى أماكن شتّى. وقد حرص السيد شيفر الّذي انطلق إلى عمله بأفضل ما يمكنه على البقاء في موقع يمكّنه من مراقبة تيكو فيو والحارس معاً. جلس أرمسترونغ فوق جذع شجرة مقطوعة، وقد أكسب وجهَه مضغُ التبغ انكفاءً، بينما بندقيته تطعن الشمس. لديه العينان المخادعتان لغشاش يلعب الورق، فلا يمكنك أبداً تخمين إلى أيّ اتّجاه ينظر.

مرّة أطلق رجلٌ آخر الإشارة. وبرغم أن السيد شيفر قد عرف على الفور أن الصوت ليس لصديقه، فإن هلعاً اقتلع حلقه كأنّه حبل مشنقة. وفيما الصبح ينقضي، كان ثمّة ما يشبه قرع الطبول في أذنيه بشكل خشي معه ألّا يسمع الإشارة حين تأتي.

صعدت الشمس إلى كبد السماء، وفكّر السيد شيفر: «ما هو إلا حالم كسول. ولن يهرب أبداً» متجاسراً لحظة ليصدّق أمانيه. لكن تيكو فيو تلفّظ بالإشارة. قال له قبلها: «نأكل أولًا.» وبينما

يفرشان دلاء غذائهما على ضفّة الخليج الصغير، أكلا صامتين كأن كلًّا منهما يحمل للآخر ضغينة. انتهى هذا الجوّ المشحون عندما أحسّ السيد شيفر بساعد صديقه تمسك ذراعه وتضغطها ضغطة خفيفة.

«سيد أرمسترونغ، استراحة قصيرة...»

كان السيّد شيفر قد رأى بالقرب من الخليج الصغير شجرة علك حلوة، وكان يفكّر أنّه سرعان ما سيأتي الربيع ويصير العلك الحلو جاهزاً للمضغ. شقّت صخرة مدببة راحة يده المفتوحة وهو يتسلّق الجسر الزلق إلى الماء، ثمّ اعتدل وشرع بالجري، كانت ساقاه طويلتان فحافظ على وجوده تقريبًا جنباً إلى جنب مع تيكو فيو، وقد انتشرت الينابيع الجليديّة السّاخنة حولهما. هدرت صيحات الرجال في الغابة جيئة وذهاباً مصحوبة بصدى مثل رجع أصوات في كهف، وانطلقت ثلاث رصاصات حلّقت عالياً وكأن الحارس يصوّب على سحابة من الإوَزّ.

لم يرَ السيد شيفر جذع الشجرة الّذي يرقد في عرض الخليج، فكّر أنّه لا زال يركض، لكن ساقاه اثنتا تحته كأنّه سلحفاة مقلوبة على ظهرها.

وهو يكافح هناك، تراءى له وجه صديقه متدلياً فوقه، كجزء من سماء الشتاء البيضاء–متجهماً وحاسماً. ظلّ هكذا لحظة مثل طائر طنّان، ومع ذلك عرف أن تيكو فيو لم يشأ أبداً له أن ينجح بالهرب، ما كان ليخطر له ذلك، وتذكّر أنّه فكّر مرّة أنّه لا يزال ثمّة وقت طويل حتى يصير صديقه رجلاً. حين وجدوه، كان لا يزال راقداً في الماء الّذي لا يتعدّى عمقه الكاحل، كأنّه أصيل صيفيّ وهو

يطفو سابحاً بتمهّل عبر تيار الغدير.

مرّت منذ ذلك الحين ثلاثة شتاءات، وقيل عن كل منها إنّها الأبرد والأطول، وغسلت أمطار الشهرين الأخيرين أعمق الحُفر في الطريق الطينية المؤدية إلى المزرعة، وصار من الصعب أكثر مما سبق الوصول إليها أو مغادرتها. وأُضيف زوج من المصابيح الكاشفة على الجدران، كانا يتّقدان في الليل كعينَي بومة عملاقة. وبشكل آخر، لم يكن ثمّة تغييرات كثيرة، فالسيد شيفر مثلاً بدا كما هو عدا الشَيب الذي كسا شعره. ونتيجةً لكاحله المكسور صارت مشيته عرجاء. وكان الكابتن نفسه هو من صرّح أن السيد شيفر كُسرت كاحله أثناء محاولته الإمساك بتيكو فيو. وحتى أنّ صورة نُشرت للسيد شيفر في الصحيفة، كُتب تحتها: «حاول منع عملية هرَب.» بعدها تنسّك بشدة، لا لأنّه يعلم أن باقي الرجال كانوا يتندّرون، بل لأنّه فكّر أن تيكو فيو يرى ذلك. وعموماً فقد قصّ الصورة والتعليق من الصحيفة واحتفظ بهما في مُغلّف مع عدة قصاصات تتعلّق بصديقه: امرأة عانس تخبر السلطات أنّه أقتحم بيتها وقبّلها، وأنّه شوهد مرتين في جوار موبيل، وأخيراً يُعتقد أنّه غادر البلاد.

لم يجادل أحد في أحقيّة السيد شيفر بالغيتار، ومنذ عدّة أشهر فاتت انتقل سجينٌ جديدٌ إلى النُزل، وأُشيع أنّه عازف ماهر، وأقنع السيد شيفر أن يُعيره الغيتار، لكن ما عزفه الرّجل كلّه كان نشازاً مقارنةً بعزف تيكو فيو، وكأن تيكو فيو قد ضبط غيتاره للتوّ هذا الصباح ونفث فيه لعنته فلا يستطيع أحد العزف عليه. الآن، يرقد الغيتار تحت سرير السيد شيفر، وقد اصفرّت ماساته الزجاجيّة.

أحيانًا تفتّش يد السيد شيفر بحثًا عن الغيتار في الليل، وتندفع أصابعه خلال الأوتار: ثمّ، عبر العالم.



ذكرى عيد ميلاد

تخيّل صباحاً من صباحات أواخر نوفمبر، منذ عشرين عامًا، صباحًا يوحي بأن الشتاء قادم. وخُذ بعين الاعتبار أن المطبخ يقع في بيت قديم واسع في بلدة ريفيّة، وأن أبرز ما فيه هو موقد أسود ضخم، وأن هناك أيضاً طاولة مدوّرة كبيرة، ومدفأة يقابلها كرسيان هزّازان، وأنّ اليوم فحسب استهلّت المدفأة طقطقتها الموسميّة.

تقف وراء نافذة المطبخ امرأةٌ بشعر أبيض قصير، ترتدي حذاءًا رياضيًّا وسترة رمادية بهتت تفاصيلها فوق فستان كاليكو صيفي. إنها ضئيلة ومُفعمة بالحيوية كدجاجة صغيرة، لكن بسبب معاناة طويلة مع المرض في شبابها، تحدّب كتفاها بشكل يدعو للرثاء. تحمل وجهاً لافتاً للنظر، لا يختلف كثيراً عن وجه لنكولن، خشن مثله، وقد لوّحته الشمس والريح خفيفاً، لكنه لا يخلو من رِقّة أيضاً، أسيل، تزيّنه عينان خجولتان بلون الخمر الأسباني. تهتف: «أوه.. إنّه طقس كعكة الفاكهة!» فيما أنفاسها تغطي زجاج النافذة بالبخار.

كان الشخص الّذي تكلمه هو أنا. كنت في السابعة من عمري بينما هي جاوزَت السّتين ببضع سنين. أبناء عمومة متباعدان جداً، وقد عشنا سوياً– حسبما أذكر! يقطن المنزل أقارب آخرون، وبرغم ما لهم من سطوة علينا، وإبكاؤهم لنا مِراراً، فإنّنا في المُجمل نادراً ما كُنّا نعيرهم اهتمامًا. كلانا صديق الآخر الحميم، تسميني بودي، تيمّنًا لذِكرى صبيٍّ كان في السابق صديقها المُقرّب. كان بودي الآخر قد مات في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت حينها طفلة، وما تزال طفلة حتى هذه اللحظة.

تضيف: «عرفتُ ذلك حتى قبل أن أنهض من فراشي!» ثم ابتعدت

عن النافذة بينما عيناها تمتلئان إثارة وعزيمة: «تناهى إليّ صوتُ جرس المحكمة واضحاً تمامًا وباردًا، وما من طيور تُغرّد في الجوار؛ فقد هاجرت إلى بلاد أكثر دفئاً، بالتأكيد. أوه بودي، كفّ عن حشو فمك بالبسكويت واجلب لنا العربة. ساعدني في العثور على قبعتي؛ فأمامنا ثلاثون كعكة لخبزها!»

تسير الأمور دوماً على نحو مُشابه: يطلع علينا صباح في نوفمبر تُعلن فيه صديقتي أن عيد الميلاد حان! العيد الّذي يُبهج خيالها ويزوّد نار قلبها بالوقود: «أوه .. إنّه طقس كعكة الفاكهة! اجلب لنا العربة وساعدني في العثور على قبّعتي.»

عُثِر على القبّعة، مدوّرة ومصنوعة من القشّ، وصدارتها مُزيّنة بورود مخمليّة خابية الألوان: فقد كانت تعود إلى واحدة من قريباتها الأكثر أناقة. سويّاً رحنا ندفع عربتنا، عربة أطفالٍ خَرِبة، عبر الحديقة وداخل أيْكة من أشجار الجَوْز. العربةُ لي، فقد ابتاعوها من أجلي حين وِلِدت. وهي مصنوعة من الخيزران المُفكّك، أمّا العجلات فتتمايل كسيقان سكّير. لكنها عربةٌ مُخلصة. ففي أوان الربيع نأخذها إلى الغابات، ونملأها بالورود، والأعشاب البريّة، والسرخس للمزهريات بشرفاتنا. وفي الصيف، نكدّسها بحاجيات التنزّه وعيدان قصب الصيد، ثم ندحرجها حتى حافّة خليج صغير. ولها استخدامات شتويّة أيضاً: كشاحنة لنقل الحطب من الفناء إلى المطبخ، وكمخدع دافئ لكويني، فأرة الجحر البرتقالية البيضاء الصغيرة المشاكسة التي نجت من سوء المزاج ولدغتين من الحيّة المجلجلة. كويني تخبّ الآن جانبها.

بعد ذلك بثلاث ساعات، نعود إلى المطبخ لنقشّر حمولة عربة ممّا

أسقطت الريح من الجَوْز. أوجع ظهرنا جمعه: كم كان صعباً العثور عليه بين خفاء الأوراق والعشب المُخادع المكسوّ بالصقيع (فقد قُطف الحصاد الرئيسيّ من الأشجار وباعه أصحاب البستان، وهم بالطبع ليسوا نحن.) فرقعة! انفلاقٌ مُبهج، وأصواتٌ رعْديّة مصغّرة ترتفع بينما قشور الجوز تتهاوى لتزداد ارتفاعًا تلك الرابية الذهبيّة من لبّ الجوز العاجيّ الزيتيّ العذْب في جفنة الحليب الزجاجية. تستجدينا كويني لتأكل شيئًا منها، ومرّة تلو أخرى تعطيها صديقتي منها قضمة، بينما تصرّ على حرمان أنفسنا منها: «يجب ألا نطلق لأنفسنا العنان يا بودي؛ لو فعلنا فلن نتوقف، وما عندنا بالكاد يكفي لخبز ثلاثين كعكة تمامًا.» يغرق المطبخ رويداً رويداً في الظلام. يحوّل الغسق النافذة إلى مرآة: تمتزج أفكارنا بالقمر الناهض، فيما نطهو الجَوْز على النار في ضوء المدفأة. في النهاية، حين يصير القمر في منتصف السماء، نقذف القشر في النار ونراقبه مُطلقين تنهّدات تتشابك، بينما هو يُمسك باللهب. تفرغ العربة، وتمتلئ الجفنة الزجاجية.

نتناول عشاءنا (بسكويت بارد، ولحم خنزير مقدّد، ومربّى التوت) ونتناقش بشأن الغد. أفضّل أن يبدأ الغد بنشاط واحد: الشّراء. الكرز والأترُج، والزنجبيل والفانيلا، وأناناس هاواي المعلّب، والقشور والجوز والزبيب والويسكي وآه.. كميّات هائلة من الدقيق والزبدة، وكثير من البيض والتوابل، ومكسّبات النكهة: ما سيجعلنا في حاجة إلى حصان سباق كي يجرّ العربة إلى البيت.

لكن، قبل تلك المُشتريات، هناك مسألة النقود، وهي ما لم يكن أيّنا يملك منها شيئاً عدا مبالغ زهيدة يجود بها علينا بعض

قاطني المنزل أحياناً (تُعدّ العشرة سنتات مبلغًا طائلًا) أو نكسبها بأنفسنا من ممارسة أنشطة شتّى: بيع الخردوات، ودِلاء التوت الذي نجمعه بأيدينا، وجِرار المربّى منزليّة الصّنع، وحلوى التفّاح الهلاميّة، ومُعلّبات الخوخ، وأطواق الزهور للجنازات والزّيجات. ذات مرّة ربحنا الجائزة التاسعة والسبعين في مسابقة كرة القدم الوطنية وكانت خمسة دولارات؛ لا لأننا مغرمون بكرة القدم ولكن لأننا نشارك في أي مسابقة نسمع بها: تنصبّ آمالنا الآن على الخمسين ألف دولار قيمة الجائزة الكبرى المُقدّمة من أجل تسمية صنف جديد من القهوة (اقترحنا «A.M."، وبعد تردّد سبَبه فكرة صديقتي أنّه ربما كان مُدنِّساً، صار شعارنا المقترح "A.M.! Amen!") وفي الحقيقة، إن مشروعنا المُربح الوحيد كان "متحف المرح والغرابة!" الّذي أدرناه في سقيفة الحطب في الباحة الخلفية منذ صيفين. تمَثّل "المرح" في فانوس سحريّ ذي شرائح مصوّرة بحيث يعكس الفانوس ما في الشرائح من صور لمناظرَ من واشنطن ونيويورك، وقد استعرناها من قريبة لنا زارت تلك الأماكن (غضبت حين اكتشفت لماذا استعرناها.) أمّا "الغرابة" فتمثّلت في دجاجة لها ثلاث أرجل احتضنتها واحدة من دجاجاتنا. كل من في الجوار أراد رؤية تلك الدجاجة: وقد جعلنا تكلفة رؤيتها خمسة سِنْتات للكبار وسِنْتين للأطفال. ربحنا عشرين دولاراً رائعة قبل أن نوصد أبواب المتحف بسبب موت عنصر الجذب الرئيسية.

لكن، بشكل أو بآخر، كنا نراكم سنوياً بعض المدّخرات لعيد الميلاد، كتمويل لكعكة الفاكهة. ونخبئ تلك الأموال في حقيبة يد قديمة حيكت بالخرز، تحت لَوْحٍ يتقلقل، تحت الأرض، أسفل حَوْض

متحرّك تضعه صديقتي تحت سريرها. قلّما يخرج الكيس من هذا المكان الآمن إلا لنودع فيه مالًا، أو كما يحدث أيّام السبت، نأخذ ممّا فيه؛ لأنّه كان مسموحاً لي أيّام السبت بعشر سنتات أذهب بها إلى السينما. لم يسبق لصديقتي أن ارتادت دار سينما ولا نوتْ ذلك: «أفضّل سماعك تحكي القصة يا بودي؛ هكذا أستطيع تخيّلها أكثر، فضلاً عن أن شخصاً في سنّي يجب عليه ألّا يبدّد نور عينيه؛ أحبّ أن أرى الربّ بوضوح حين يأتي أجلي.» وفضلًا عن كونها لم تشاهد فيلماً، فإنها لم تأكل قط في مطعم، أو تسافر لأبعد من خمسة أميال عن البيت كي تتلقّى برقيّةً أو ترسلها. ولم يسبق لها أن قرأت أيّ شيء سوى بعض الأوراق الفُكاهيّة والكتاب المقدّس، ولا تضع مستحضرات تجميل، ولا تلعن أو تتمنى ضرراً لأحد، ولا تكذب عن قصد، ولا تدع كلباً جائعاً على جوعه. إليك بعض ما قامت به: قتلت بمجرفة أضخم حيّة ذات أجراس شوهدت في هذه البلد (ستة عشر جرساً) وتنشق السعوط (سرًّا) وتروّض طيور الطنّان (حاولت ذلك دون أن تنجح) وتستطيع أن تتوازن واقفةً على أصابعها، وتُجيد رواية قصص الأشباح (كلانا يؤمن بالأشباح) ولهذا فهي دائمًا تشعر بوخزة برد إذا حلّ شهر يوليو، وتتحدث مع نفسها، وتمشي تحت المطر، وتزرع أجمل سفرجل ياباني في البلدة، وتعرف الوصفة المناسبة لكل نوع من أنواع العلاج الهندي القديم بما في ذلك وصفة سحرية لإزالة الثؤلول.

الآن، وقد فرغنا من العشاء، نتراجع إلى الحجرة في الجزء البعيد من البيت، حيث تنام صديقتي فوق السرير الحديديّ الخردة، المُغطّى باللحاف، والمدهون بلونها الأثير: الأحمر القرنفلي. في صمت

نتمرّغ في ملذات التآمر، نلتقط الكيس المخرّز من مكانه السرّي وندلق محتوياته فوق السرير الخردة واللحاف. دولارات ملفوفة بإحكام، خضراء كبراعم شهر مايو. وقطع الخمسين سنتاً الداكنة، ثقيلة كفاية لتزن قذر عيون رجل ميت. العشرة سنتات المحبّبة، العملة الأكثر حيوية والوحيدة التي تجلجل بحقّ. الخمسة سنتات والأرباع، تراءت ناعمة كحصوات في جدول ماء. لكن في الغالب ثمة كومة بغيضة من البنسات التي تنضح بالمرارة. الصيف الماضي، عقد آخرون في البيت اتفاقاً يدفعون بموجبه بنساً عن كل خمس وعشرين حشرة نقتلها. أوه، تلك هي مذبحة أغسطس: الحشرات التي طارت للنعيم! برغم كونه ليس بالعمل الّذي نفتخر به، وفيما نجلس لعدّ السنتات، فإن الأمر بدا وكأننا نعود إلى جدولة الحشرات الميتة. ما من أحدٍ منّا يُتقن العدّ، نعدّ ببطء، فنضلّ، ونبدأ العدّ من جديد. وفقاً لحساباتها، لدينا 12,73 دولاراً، ووفقاً لي، ثلاثة عشر دولاراً تمامًا: «أتمنى لو كنت مخطئاً يا بودي؛ فلا يمكن أن نخطئ في رقم 13، فبهذا الشكل إمّا سيفشل الكعك أو علينا أن نضع امرءٍ في القبر. لماذا، لن أرغب في الحلم بالنهوض من الفراش في يوم الثالث عشر» هذا صحيح، دائماً ما تمضي الأيام التي توافق الثالث عشر في الفراش. لذا، وكي نكون في الجانب الأحوط، طرحنا بنساً وألقينا به من النافذة.

* * *

من بين المكوّنات اللازمة لتحضير كعك الفاكهة، يُعدّ الويسكي هو الأكثر كُلفة، فضلاً عن صعوبة الحصول عليه: فقوانين الولاية

تمنع بيعه، لكن الجميع يعلمون أنّك تستطيع شراء زجاجة من السيد هاها جونز. وهكذا، في اليوم التالي بعد إتمامنا شراء كل شيء رخيص، توجّهنا إلى محلّ السيد هاها، إنّه مقهى للرقص والسمك المقلي، وهو مكان "آثم" حسب التعبير العام. كنّا قد ذهبنا قبلاً لذلك المكان، من أجل المهمة نفسها. لكننا كنا نتعامل مباشرة مع زوجة هاها، وهي امرأة داكنة بلون اليود ذات شعر نحاسي مُعالج بالبيروكسيد المبيّض، ومِزاج ضَجِر حاد. في الواقع، لم تقع عيوننا على زوجها قط، ولو أنّنا سمعنا أنّه ذو أصول هنديّة هو الآخر: عملاقٌ يحمل ندوبًا تعبر وجنتيه. يطلقون عليه "هاها" لأنّه بالغ العبوس! رجل لم يُرَ ضاحكًا قط. ومع اقترابنا من مقهاه (كوخ خشبيّ كبير، زُيّن داخله وخارجه بمصابيح شديدة الإنارة وغريبة وعارية الأسلاك، بينما ينهض الكوخ نفسه على الحافة الموحلة للنهر وتحت ظلال أشجاره، حيث تتراكم الطحالب عبر الغصون مثل ضباب رماديّ) أبطأنا خُطانا، حتى كويني كفّت عن الوثب والتصقت بنا؛ لقد سبق وقُتل أشخاص هنا في مقهى هاها، ومُزّقت جثثهم إرباً، وضُرِبوا على رؤوسهم. ثمّة قضية ستنظر فيها المحكمة الشهر المُقبل. هذه هي طبيعة الأمور في الليل حين تبعث الأضواء الملوّنة نقوشاً مجنونة مع نحيب آلة الغرامفون. أثناء النهار يكون مقهى هاها متهالكاً ومهجوراً. قرعتُ الباب. سعلت كويني بينما راحت صديقتي تنادي: «سيدة هاها، يا سيدتي؟ هل من أحد بالبيت؟»

وقْع خطوات، ثمّ انفتح الباب، فسقطت قلوبنا. إنّه هو! السيّد هاها جونز بنفسه! عملاق **يحمل ندوبًا ولا يبتسم**. لا يمكن! لكنه

هو، يحملق فينا بعينين يُطلّ الشيطان منهما ويريد أن يعرف: «ماذا تريدان من هاها؟»
يبِسنا لوهلة، عاجزين عن الرّد. لكن سرعان ما عثرت صديقتي على نصف صوتها، وهو صوت هامس في أحسن الأحوال: «من فضلك يا سيد هاها، نرغب بشراء ربع غالونٍ من خِيرة الويسكي الذي عندك.»
مالت عيناه أكثر. هل تصدّق ذلك؟ هاها يبتسم! ويضحك أيضاً. «ومن منكما الشّارب؟»
«إنّه لأجل خبز كعك الفاكهة يا سيّد هاها. لأجل تحضيره.»
هذا الكلام جعله يفيق، فعبس: «هذا الصّنيع، ولا شك، هدْرٌ للويسكي الجيّد.» لكنه، مع ذلك، انسحب إلى داخل المقهى الظّليل، وعاد بعد ثوان حاملاً زجاجة مليئة بمادة سائلة صفراء أقحوانية مجهولة الهويّة. برهن على تألّقها بتعريضها للشمس قائلًا: «دولاران.»
دفعنا له بالقطع المعدنيّة من فئة الخمسة سنتات والعشر سنتات والسّنتَيْن المفردة. وبغتة، بينما القطع النقدية تصدر صلصلة في يده مثل قطع النرد، لانَ وجهه فابتدرنا قائلًا: «أقول لكما» وهو يُعيد العملات في كيسنا المخرّز: «أرسلا لي قطعةً واحدة من كعك الفاكهة بدلاً من النقود.»
علّقت صديقتي في طريقنا للبيت: «طيّب.. ثمّة رجل ودود، سنضع فنجاناً إضافياً من الزبيب في **كعكته**.»
أذكينا النار في الموقد الأسود بالفحم والحطب؛ فتوهج كيقطينة منوّرة. مضارب البيض تدور، والملاعق حول جفنات الزّبدة والسّكر

تدور، بينما الفانيلا تعبق في الهواء الذي ملأته رائحة الزنجبيل. تشبّع المطبخ بروائح تذويب المكوّنات ممّا سبّب وخزاً خفيفاً في أنوفنا، ثمر غمرت البيت، وانجرفت إلى العالم عبر الدخان الّذي ينفثه الموقد. وفي غضون أربعة أيام كُنّا قد فرغنا من عمل الكعك، إحدى وثلاثون كعكة مُرطّبة بالويسكي تتشمّس على عتبات النوافذ والأرفف.

لمن تلك الكعكات؟

للأصدقاء. ليسوا بالضرورة من الجيران: في الواقع، الصُّحبة الأوسع مقصودة لأشخاص ربما لم نرهم سوى مرّة واحدة، أو ربما لم نرهم قط. أشخاص ألهمونا، مثل الرئيس روزفلت، أو القسّ والسيدة ج.س.لوسي، والمبشّرين المعمدانيين الذين كانوا هنا الشتاء المنصرم والآن ذهبوا إلى بورنيو، أو شاحذ السكاكين الضئيل الّذي يجيء إلى البلدة مرّتين كل سنة، أو أبنر باكر سائق باص الساعة السادسة من موبيل الّذي يتبادل معنا التلويح كل يوم وهو يمر مصحوباً بسحابة من الغبار، أو الزوجين ويستون الشابّين من كاليفورنيا، الذان تعطلّت سيارتهما ذات أصيل أمام البيت فقضيا ساعة لطيفة يتحدثان معنا من الشرفة (وقد التقط لنا السيد ويستون صورة، هي الوحيدة التي تجمعنا سوياً.) هل سبب ذلك أن صديقتي خجولة إزاء الجميع عدا الغرباء بشكل يبدو معه وكأن هؤلاء الغرباء والمعارف المجرّدين هو أصدقاؤنا وموضع ثقتنا؟ أعتقد ذلك. وأيضًا، إنّ سجِل القُصاصات الّذي نحتفظ به لخطابات الشّكر المكتوبة على الورق الذي من نوع "البيت الأبيض"، والاتصالات بين الحين والآخر من كاليفورنيا

وبورنيو، وبطاقات شاحذ السّكاكين البريدية بقيمة بنس واحد، تجعلنا نشعر بالارتباط بعوالم زاخرة بالأحداث بعيدًا عن المطبخ الّذي يطلّ على سماء محدودة.

الآن، يحكّ غُصْنُ تِيْنِ ديسمبر حافة النافذة، غصنٌ أجرد. المطبخ خالٍ وقد فرغ من الكعك الّذي نقلنا آخر قطعة منه بالأمس إلى مكتب البريد، حيث كلّفتنا الطوابع البريديّة آخر سنتٍ لدينا، فصرنا مفلسين. أحبطني ذلك. لكن صديقتي أصرّت على الاحتفال ببوصتَي ويسكي بقيتا في زجاجة هاها، فازت منهما كويني مِلْء ملعقة في فنجان قهوة (تحبّ قهوتها قوية وبنكهة الهندباء) وما تبقّى اقتسمناه بين زوج من أكواب الحلوى الرجراجة؛ فكلانا يخشى تماماً إمكانية شرب الويسكي الصّرف؛ فمذاقه يجلب العبوس والرعدات الكريهة. لكن شيئاً فشيئاً نبدأ بالغناء، كلانا يغني أغنيات متباينة في آن. لا أعرف كلمات أغنياتي، فقط: امضِ إلي، **امضِ إلي، إلى احتفالات البلدة المعتمة**. لكنّي أستطيع الرقص: وأعني بالرقص أن أكون راقصاً بكعب الحذاء كما في الأفلام. يمرح ظلّي الراقص فوق الجدران وتهزّ أصواتنا الآنية الخزفيّة، نقهقه، كأن أيادٍ خفيّة تدغدغنا. تتدحرج كويني على ظهرها، وتخمش مخالبها الهواء، وشيء شبيه بابتسامة ترتسم فوق شفتيها السمراوين. في داخلي، أشعر بالدفء والتوثّب كتلك الأشجار المنهارة، سعيداً كالريح في المدخنة. ترقص صديقتي الفالس حول المدفأة، وقد رفعت طرف تنّورتها الكاليكو الرخيصة بأصابعها وكأنّها فستان حفل راقص، وتغني: **أرني طريق العودة للديار**، بينما حذاءها الرياضيّ يُصدر صريراً جرّاء احتكاكه بالأرض. **أرني طريق العودة للديار.**

يدخل علينا اثنان من الأقارب غاضبين جدّاً، مصحوبين بعيون يطلُّ منها التوبيخ، ولسانين سليطين. أُنصت لما يهرفا به، والكلمات تنقذف متتابعة في تناغم مغيظ: «طفل في السابعة! تفوح رائحة الويسكي من أنفاسه! هل أنت مختلّة؟ إطعام طفل في السابعة! أنتِ معتوهة ولا شك! إنه الطريق إلى الخراب! هل تذكرين بنت العمّ كايت؟ العمّ شارلي؟ نسيب العمّ شارلي؟ يا للعار! يا للفضيحة! يا للذلّ! اركعي وصلّي وتوسّلي الرّب!»

تتسلّل كويني إلى أسفل الموقد، وتحدّق صديقتي في حذائها، يرتعش ذقنها، تترك طرف تنورتها وتتمخّط ثمّ تجري إلى غرفتها. وبعد ساعات طويلة، تكون البلدة خلالها قد غرقت في النوم وبات البيت صامتًا عدا طقطقة الساعات وفرقعة النيران التي تخبو، تذرف دموعها في مخدة مبلولة قبْلاً وكأنّها منديل أرملة.

قلت لها: «لا تبكِ» جالساً عند حافة فراشها، أرتعد برغم ثوب النوم الصوفيّ الناعم الّذي تفوح منه رائحة شراب سعال الشتاء الماضي. أتوسّل إليها: «لا تبكِ» مستفزًّا أصابعها ومدغدغاً قدميها، «أنتِ كبيرة جداً على ذلك!»

تشهق وهي تقول: «لهذا السبب أبكي ..**إنّني مسنّة**.. عجوز مُضحكة.»

«لستِ مُضحكة، بل خفيفة الدّم، أخفّ دم من كل من في البيت. اسمعي، إذا لم تكفّ عن البكاء سيطلع عليك الصباح وأنتِ مجهدة، ولن نتمكن من الذهاب لقطع شجرة واحدة.»

تستوي ناهضة، وتثب كويني فوق الفراش (المكان الممنوع عليها) لتلعق خديها: «أعرف أين نجد أشجارًا حقيقية وجميلة يا بودي، وشائكة

أيضاً، عامرة بالتوت الكبير كعينيك. إنّها بعيدة في قلب الغابات، أبعد من أي مكان ذهبنا إليه سابقاً. كان والدي قد اعتاد أن يأتي لنا بأشجار عيد الميلاد من هناك: يحملها فوق كتفه. ذلك منذ خمسين سنة. على العموم، الآن: لا أستطيع الانتظار حتى الصباح.»

في الصباح، تصقل العشب قشرة ثلج، والشّمس، مدوّرة كبرتقالة، وبرتقالية كأقمار الطقس الحار، تستقر في الأفق، تصقل غابات الشتاء الفضيّة. يصيح ديكٌ روميّ برّي. رجْع همهمات خنازير من تحت الأشجار المتشابكة. عاجلاً، على حافة جدول ماء جار بعمق الرُّكبة، كان علينا التخلّي عن العربة. تخوض كويني النُهير أولاً، تجذّف وتعوي شاكيةً سرعة التيار، والبرودة المُسبّبة للالتهاب الرّئوي. نلحق بها، ممسكين أحذيتنا وقابضين على معدّاتنا (فأس قصيرة وكيس من الخيش) فوق رأسينا. نقطع ميلًا إضافيًا من الأشواك المؤذية والحواف الخشنة والغصون البريّة التي تعلق في ثيابنا، ومن نِصال الصنوبر الماهرة مع الفطر المبهرج والرّيش المنزوع. هنا، هناك، ومضة، رعشة، نشوة زغردة تذّكرنا أنّه ليست الطيور كلّها قد هاجرت إلى الجنوب. ودائماً، يتواصل الطريق عبر بِرك الشمس الليمونيّة وأنفاق الكروم المسفلتة. خليج ماء صغير علينا عبوره: حشْدٌ مُنزعج من سمك السّلمون المرقّط يزيد الماء حولنا، وضفادع بحجم الأطباق تقفز في الماء على بطونها، ومجموعة من حيوان القندُس تشيّد سدًّا. وعلى الشاطئ البعيد، تنفض كويني جسمها وترتجف. صديقتي ترتعد هي الأخرى: ليس من البرد لكن من فرط الحماس. تُسقط واحدة من زهرات قبعتها إحدى بتلاتها بينما هي ترفع رأسها وتستنشق الهواء المعبأ بعبير الصنوبر. «نكاد

نصل يا بودي، هل تشم الرائحة؟» تقول، كأننا نقارب محيطاً. في الحقيقة، بدا المكان شبيهًا بالمحيط فعلًا. مساحات شاسعة مُعطّرة من أشجار الأعياد، شائكة الأطراف. تتدلّى ثمار التوت الحمراء كأجراس صينية: تنقضّ عليها غربان سوداء صارخة. كنّا قد حشونا أكياس الخيش بالأوراق الخضراء والقرمزية بما يكفي لتزيين بضع عشرة نافذة: فجلسنا بمحاذاة الشجرة المُختارة. تتأملها صديقتي، «ها هي.. بطول صبيٍّ مرتين؛ فلا يقدر طفل على سرقة النجمة التي سنعلّقها في الأعلى.» كانت الشجرة التي وقع اختيارنا عليها أطول منّي مرتين، ضخمة ورائعة، وشجاعة، فقد نجت من ثلاثين ضربة فأس قبل أن تنقلب مُصدرة صريراً كبكاء شَقّ الآفاق، جررناها كطريدة مقتولة، مستهلّين رحلة إياب طويلة. يضعف نضالنا كل بضع ياردات فنجلس لاهثين، لكن لنا قوّة صيّادين منتصرين، والتي مع فحولة الشجرة تنعشنا بشذى بارد، وتحثّنا على المتابعة. كثير من الإطراءات ترافق عودتنا في الغروب على طول طريق الطين الأحمر المتّجه إلى البلدة، سوى أن ردود صديقتي الكتومة والملتبسة على ثناء المارّة على الكنز الجاثم فوق عربتنا تكفّل بالمهمة: يا لها من شجرة رائعة، من أين جئتما بها؟ تغمغم صديقتي بغموض: «من مكانٍ بعيد». مرّة توقّفت سيارة وأطلّت منها زوجة صاحب الطاحونة الكسولة، ثم راحت تقول: «سأعطيك ربع دولار نقداً لقاء هذه الشجرة العجوز». عادة تخشى صديقتي التصريح بالرفض، لكنها هذه المرّة هزّت رأسها دون إبطاء: «لن نبيعها ولو بدولار». تُثابِر زوجة صاحب الطاحونة: «دولار، هراء! خمسون سنتاً، هذا هو عرضي الأخير، ما لك يا امرأة،

يمكنك الحصول على أخرى.» تفكّر صديقتي مليًّا وهي ترد بلطف: «أشك في ذلك، ما من نسختين من الشيء نفسه أبداً.»
في البيت: تسقط كويني قرب النار وتنام حتى اليوم التالي، تغطّ بصوت عال كأنّها من جنس البشر.

* * *

يحتوي صندوق في العليّة على: علبة أحذية بها ذيول القاقُم[23] (منزوعة من الرداء الخارجي لسيدة غريبة استأجرت مرّة غرفة في البيت،) ولفافات من أشرطة زينة متداعية وقد حال لونها إلى الأصفر بفعل الزمن، ونجمة فضيّة، وحبل قصير بال، ومصابيح لا ريب في خطورتها على شكل سكاكر. إنها زخارف رائعة بقدر ما تستخدم له، وهو ما لم يكن كفاية: فصديقتي ترغب بأن تبرق شجرتنا «مثل نوافذ الكنيسة» تتدلى منها حليّ الكرات الثلجيّة الثقيلة. سوى أنه لم يكن في مقدورنا تحمّل كلفة الصناعة اليابانيّة الرائعة ذات الخمسة دولارات وعشر سنتات، وهكذا، قمنا بما نقوم به دومًا: الجلوس لأيام طويلة إلى طاولة المطبخ بالمقصّات والشّمع ورُزَم الورق الملوّن. أخطط رسومات وتقصها صديقتي: كثير من القطط والأسماك (بسبب سهولتها في الرسم) بعض أشكال التفاح والبطيخ، ورسومات ملائكة بأجنحة نسخناها عن رقاقات قصدير (احتفظنا بها) لقطع شوكولاتة هيرشي. نستخدم دبابيس آمنة لتثبيت تلك الابتكارات إلى الشجرة. وكلمسة أخيرة، نرشّ الأغصان بنتف قطن (مُنتقاة في أغسطس لهذا الغرض) تشبك صديقتي

(23) Eromine: القاقُم، القاوم: حيوان من فصيلة بنات عِرس. م.

يديها وهي تتفحّص النتيجة: «الآن، بصدق يا بودي، ألا تبدو رائعة إلى درجة أن تشتهي أكلها؟» فتحاول كويني التهام ملاك!
بعد صناعة بعض الأكاليل وتزيينها بأشرطة ملوّنة لكل النوافذ الأماميّة، تصبح مهمّتنا التالية هي إعداد هدايا العائلة: أوشحة مصبوغة للسيّدات، وللرجال ليمون معصور في المنزل، وعرق سوس، وشراب الأسبرين للاستخدام عند «ظهور أول أعراض للبرد، وبعد الصيد»، لكن حين يجيء الوقت كي يُعدَّ كل منّا هديّته للآخر، ننفصل للعمل كلّ بمعزل عن الآخر. أودّ لو أشتري لها سكّينًا بمقبض لؤلؤيّ وجهاز راديو ورطلًا كاملًا من الكرز المغطّى بالشكولاتة (كنّا تذوّقناها مرّة، ودائماً ما تُقسِم: «أستطيع العيش عليه يا بودي، نعم، يا ربي، أستطيع– ولست أذكر اسم الرّب كاذبة!»). لكني، بدلاً من ذلك، أصنع لها طائرة ورقيّة. تودّ لو أعطتني دراجة (كانت قد أعربت عن رغبتها تلك عدة ملايين من المرّات: «ليتني أقدر يا بودي، إنّه لأمرٌ قاس كفاية في الحياة أن تعيش دون الشيء الذي ترغبه، بل وتنتهي إلى لعنه، ما يقتلني ليس هذا، بل ألا أكون قادرة على منح أحدٍ ما شيئاً أرغب أن يحصل عليه، لكن في يومٍ ما من تلك الأيام المحظوظة يا بودي سأفعل، سأرصد لك درّاجة، لا تسألني كيف؛ فربما أسرقها). بدلاً من ذلك، أوقن تماماً أنّها تبني لي طائرة ورقيّة– كما في العام الماضي والّذي سبقه: العام الّذي سبقه تبادلنا النِّبال. كلها أمور لا بأس بها بالنسبة لي؛ لأننا أبطال في تطيير الطائرات الورقية وندرس الريح كأننا بحارة: وصديقتي أكثر براعة منّي؛ فهي تقدر على رفع الطائرة عالياً حين لا يوجد ما يكفي من النسيم لحمل السّحب.

عشيّة عيد الميلاد، نعمد معاً لتوفير خمسة سنتات ونذهب إلى محلّ الجزّار لنشتري هدية كويني التقليديّة، عضمة بقر طيّبة صالحة للقرض. العظمة، ملفوفة في ورقة مُضحكة، موضوعة في مكان مرتفع في الشجرة قُرب النجمة الفضيّة. تعرف كويني أنّها هناك، وتقرفص أسفل الشجرة تحملق عالياً بشراهة: وعندما يحلّ أوان النوم ترفض التزحزح. تعادل إثارتها ما أشعر به. أركل الأغطية وأقلب مخدتي كأنّها ليلة صيفيّة ساخنة. وفي مكانٍ ما يصيح ديك.

«خطأ؛ فالشّمس ما تزال على الجانب الآخر من العالم.»

«بودي، أنت مستيقظ؟» هذه صديقتي، تناديني من حجرتها المجاورة لحجرتي، وخلال لحظة تكون جالسة فوق سريري ممسكة بشمعة، وتقول: «يجافيني النوم» وتتابع: «الأفكار تتقافز في عقلي كأنّها أرنب لعبة. هل تعتقد يا بودي أن السيدة روزفلت ستقدّم كعكتنا على العشاء؟» نتشاور في السرير، وتحتضن كفّي بحبّ: «يتراءى لي كأن كفيك اعتادتا حجمهما الصّغير، وأخمّن أنّني أكره رؤيتك تكبر. حين تكبر حقًّا، هل سنبقى صديقين؟» أجيبها: «دائماً.» فتتابع: «غير أنّي أشعر بالسوء يا بودي: لقد رغبت بجنون أن أهديك دراجة، وحاولت بيع حجر كريم كان أبي قد أعطاه لي» تتردّد كأنّها مُحرجة: «لقد صنعت لك طائرة ورقية أخرى» ثمّ أعترف أنّي صنعت لها واحدة أنا أيضًا. «أيضاً!» ونضحك. تحترق الشمعة سريعاً؛ فنخرج لنكتشف نور النجوم التي تدور حول النوافذ كترنيمة مرئية يُسكتها الفجر رويداً رويداً. ربّما يُغالبنا النُعاس، لكن بشائر الفجر تتدفّق علينا كماء بارد: مستيقظان

بينما عيوننا مفتوحة على اتساعها، نتجوّل في انتظار استيقاظ الآخرين. تُسقِط صديقتي عن قصد الغلّاية على أرض المطبخ، وأرقص بكعب حذائي على مقربة من الأبواب الموصدة. واحداً تلو الآخر يبزغ أفراد الأسرة، ترتسم على وجوههم رغبة في قتلنا سوياً، لكنه عيد الميلاد؛ فلن يسعهم ذلك. في البداية، إفطار رائع: كل ما تتخيله بالضبط– من كعك الحليب والبيض والسناجب المقلية إلى عصيدة الذرة وأقراص العسل، ما جعل الجميع في مزاج مرح طيب عداي أنا وصديقتي؛ بصراحة، نحن نتوق للحصول على هدايانا إلى درجة تمنعنا من الأكل ملء فمينا.

عموماً، يصيبني الإحباط، ومن لم يُحبط؟ مع الجوارب، وقميص مدرسة الأحد، وبعض المناديل، وسترة مُستعملة، واشتراك لمدة سنة في مجلّة دينية للأطفال. **الراعي الصغير**. تجعلني الهدايا أغلي، بحقّ.

تفوز صديقتي بغنيمة أحلى: كيسَ يوسفي، أحلى هدية تحصل عليها. تفخر أكثر، على العموم، بشال صوف أبيض حاكته شقيقتها المتزوّجة. لكنها تقول إن هديتها الأثيرة هي الطائرة الورقية التي صنعتها لها، وهي رائعة لكنها ليست في روعة الطائرة التي صنعتها هي لي، الزرقاء المشغولة بنجوم من نوع غود-كوندكت الخضراء الذّهبية، وأكثر من هذا أن اسمي منقوش عليها، «بودي.»

«بودي، الريح تهبّ.»

الريح تهبّ، ولا يسعنا فعل شيء قبل أن نجري إلى المرعى عند المنزل حيث انطلقت كويني لتدفن عظمتها (وحيث، في شتاء ما فيما بعد، ستدُفن هي الأخرى هناك)، وقد غطسنا في العشب اليانع الّذي

يرتفع حتى خصرينا، نفكّ لفافات طائرتينا الورقيتين، مستشعرَين رعشتَيهما من خيطيهما كأنّهما سمكتان سماويتان تسبحان في الريح. نتسلّق العشب شاعرين بالرضا والدفء، نقشّر اليوسفي ونراقب طائرتينا وهما تثبان، وسرعان ما أنسى الجوارب والسترة المُستعملة. أطير من الفرح وكأنّي ربحت حقّاً الخمسين ألف دولارًا قيمة الجائزة الكُبرى في سباق اسم القهوة الجديدة.

تصيح صديقتي: «يا للعجب، كم أنا غبية»، تتأهب بغتة، كامرأة تتذكّر مُتأخّرة جداً أن لديها بسكويتاً في الفرن. تسأل بصوت من اكتشف سراً عميقاً لتوّه، دون أن تبتسم لي، بل لنقطةٍ ما خلفي: «أتدري فيمَ كنت أفكر على الدوام؟ في أنّ جسداً لا بد أن يمرض ويحتضر قبل أن يرى الربّ، وقد تخيّلت أنّ الرّب حين يجيء سيشبه الصور التي ننظر إليها في نافذة المعمدانيّة: جميلاً كزجاج ملوّن والشّمس تتدفّق من خلاله، ألقًا لا تعرف معه إظلاماً. كان أمراً مُريحاً: التفكير بأنّ هذا التألق سينتزع كل المشاعر الخبيثة، لكنّي سأراهن أنّ ذلك لا يحدث أبداً. سأراهن في النهاية أن جسداً يُدرك أن الربّ قد كشف فعلاً عن نفسه، وأن الأمور لا تتغيّر»- ترسم بيدها إشارة تجمع السّحب والطائرات الورقيّة والعشب وكويني التي تنبش الأرض عن عظمتها - «إنّه في كل ما يرونه دائماً، يرون تجليه. وبالنسبة لي، أستطيع ترك العالم مكتفيةً بما تركه يومي من صور في عينيَّ.»

* * *

هذا هو آخر عيد ميلاد لنا معًا.

تُباعد الحياة بيننا. أولئك الّذين خبُروا بالحياة أكثر قرّروا إلحاقي بمدرسة عسكرية. وهكذا تلاحقت سلسلة متوالية من الأحداث المُخزية في المعسكرات الصيفيّة الأشبه بالسجون، والنفخ في البوق كل صباح لإيقاظنا. لديّ منزل جديد أيضًا، لكن لا يعوّل عليه؛ فالبيت حيث تكون صديقتي، وحيث لم أذهب ثانيةً أبداً.

وتبقى هي هناك، تتسكّع في أرجاء المطبخ بمفردها رفقة كويني. ثمّ وحيدة. (تكتب بخطها الجامح الّذي يستعصي على القراءة: «عزيزي بودي، في الأمس ركل جوادُ جيم ماسي كويني بقسوة، الحمد لله أنّها لم تتعذّب كثيراً، لففتها في قماشة كتان رقيقة وحملتها على العربة إلى مرعى سيمبسون حيث يمكنها البقاء هناك مع كل عظامها...») تستأنف لبضعة سنوات تالية خبز كعك الفاكهة بمفردها في نوفمبر، ليست كثيرة بل البعض منها. وطبعاً ترسل لي دائماً قطعتي: «ألذّ قطعة في الكعكة». كذلك، في كل خطاب تودع عشر سنتات مغلّفة بورق الحمام: «شاهد فيلماً واحكِ لي القصّة.» لكن، بالتدريج، مالت في خطاباتها للخلط بيني وبين بودي الآخر الّذي مات في ثمانينيات القرن التاسع عشر. ثمّ، شيئاً فشيئاً، لم تعد أيّام الثالث عشر فحسب هي الأيام التي تظلّ فيها أسيرة فراشها، فهناك أيضًا صباح يجيء في نوفمبر، يجيء عاريًا من الأوراق وبلا طيور وحاملًا بشائر الشتاء، صباح تعجز فيه أيضًا عن النهوض كي تهتف كعادتها: «أوه.. إنّه طقس كعكة الفاكهة!»

وحين يحدث ذلك، سأعرف ما جرى. سأستلم رسالة قصيرة تؤكّد حدوث أمرٍ له بعض الخصوصية، أمر أكون قد عرفته سلفًا..

رسالة تؤكد انفصال جزء منّي لا يمكن استبداله، لتتركه يتهادى بارتخاء كطائرة ورقيّة انقطع حبلها. ولهذا السبب، أتمشّى قاطعًا حرم مدرسةٍ ما في هذا الصباح الديسمبريّ بالذات، وأظلّ أفتّش السماء، كأنّني أتوقّع أن أرى، مثل قلبين متعانقين، زوجاً من الطائرات الورقيّة الضائعة يُسرع إلى الفردوس.

نبذة عن المؤلّف

ولد ترومان كابوتي (اسمه ترومان ستريكفوس بيرسونس) في الثلاثين من سبتمبر/أيلول عام 1924 في نيو أورليانز. عانى في سنواته المبكرة من حياة عائلية غير مستقرة، وقد آلت تربيته لعائلة أمه في مونروفيل بولاية ألاباما، وذلك بعد أن سُجن والده بسبب الاحتيال وطلاق والديه ودخولهما في صراع طويل من أجل الفوز بالوصاية على ترومان. في نهاية المطاف انتقل إلى مدينة نيويورك للعيش مع أمّه وزوجها الثاني، رجل الأعمال الكوبيّ الذي منحه لقبه: كابوتي. حصل كابوتي الشاب على وظيفته الأولى في مجلة «ذه نيويوركر» كعامل لنقل المواد المعدّة للطبع في بداية الأربعينيات من القرن المنصرم، لكنه طُرد بسبب إهانته غير المقصودة للشاعر الأمريكيّ روبرت فروست. رسّخت قصصه الأولى التي نُشرت في مجلة «ذه هاربرز بازار» شهرته الأدبية وهو ما يزال في العشرينيات من عمره، وعزّزت روايتاه التاليتان من شهرته المبكّرة «أصوات أخرى، غرف أخرى» [1948] وهي قصة قوطيّة تتعلّق بالنضوج من الطفولة إلى البلوغ وقد وصفها كابوتي بأنها «محاولة لطرد الأرواح الشريرة،» ثمّ روايته «قيثارة العشب» [1951]، فانتازيا أكثر رقّة من سابقتها تتّخذ من سنوات حياته في ألاباما محورًا لها.

منذ البداية، حرص كابوتي على مدّ جسور الصداقة على مدى واسع مع الكُتّاب والفنانين وشخصيات المجتمع الراقي والمشاهير

العالميين، مكتسبًا بذلك اهتمامًا إعلاميًا متّصلًا انصبّ على حياته الاجتماعيّة الزّاخرة. جمع قصصه في كتاب «شجرة ليل» [1949] ونشر الرواية القصيرة «إفطار عند تيفاني» [1958]، (أعدّها للسينما جورج أكسيلورد وأخرجها فيلمًا بلاك إدوارد عام 1961، وقام بالدورين الرئيسيّين كلّ من أودري هيبورن وجورج بيبارد.) لكنّه كرّس طاقاته بشكل متزايد في الإعداد لمعالجة مسرحية عن «قيثارة العشب» وكتابة المسرحية الموسيقية «بيت الزهور» [1954] – أمّا عمله للصحافة، والتي كان من أمثلة كتاباته المبكّرة لها «لون محلّي» [1950] و«التأمّلات مسموعة» [1956]. ولترومان كابوتي تجربة وحيدة في الكتابة للسينما هي النصّ السينمائي لفيلك «هزيمة الشيطان» [1954] الذي أخرجه جون هيوستن.

شكّل اهتمام كابوتي بجريمة قتل عائلة كاملة في كانساس، والذي قاده لتحقيق مطوّل، الأساس لروايته ذائعة الصّيت «بدم بارد» [1966] أكثر كتبه نجاحًا. وعبر «معالجة أحداث يوميّة بتقنيات روائيّة» عمد كابوتي إلى خلق تركيبة جديدة: تمزج بدرجة ما بين»الواقع الخالص» والفن. وعمومًا، ومهما كان النوع الأدبي لهذا الكتاب، فقد حاز منذ لحظة نشره مُسلسلًا في ذه نيويوركر على إعجاب بين القُرّاء لم تحققه أي من كتابات كابوتي السابقة. وقد صار الحفل التنكّري في فندق بلازا الذي أُيم للاحتفال باكتمال «بدم بارد» حدثًا أيقونيًا لعقد الستينيات من القرن العشرين، ليحوز كابوتي بعدها لفترة حضورًا مستمرًا في التلفاز والمجلّات، حتى أن ذلك شمل ممارسة التمثيل في فيلم «جريمة عن طريق الموت» Murder by Death.

عمل كابوتي سنوات عديدة في تأليف «صلوات مستجابة»، وهي رواية لم تُستكتمل في نهاية الأمر، كان ينوي أن تكون عُصارة مركّزة لكل مشاهداته التي جمعها في حياته بين الأثرياء والمشاهير، وقد روّع نشر جزء منها في مجلة إسكواير عام 1975 كثيرين من أصدقاء كابوتي الأثرياء لكشفها أسرارًا حميمة؛ ليجد نفسه مستبعداً من عالم لطالما كان جزءًا منه. في سنواته الأخيرة، نشر مجموعتين من القصص والمقالات: «الكلاب تنبح» [1973] و«موسيقى المتقلّبين» [1980]. توفي كابوتي في الخامس والعشرين من شهر أغسطس/ آب عام 1984 بعد معاناته سنوات طويلة من مشاكل صحيّة جرّاء إدمانه على المخدرات والكحول.

في 2004 نشرت **قصص ترومان كابوتي الكاملة** ونشرت أيضاً **متعة وجيزة جداً: رسائل ترومان كابوتي.** في 2005، نشرت في أرجاء العالم روايته الأولى التي اعتقد لوقت طويل أنها مفقودة، **عبور الصيف.**

نبذة عن المترجم

كاتب ومترجم من مصر. وُلِدَ في الاسكندرية عام 1976. سافر إلى المملكة المتحدة في بعثة تدريبيّة بجامعة أدنبرا عام 2004. ترجم لترومان كابوتي ونورمان ميلر وجور فيدال وارنست جينز وآخرين. نُشرت ترجماته في المركز القومي للترجمة بالقاهرة والهيئة المصرية العامّة للكتاب ودار أزمنة في الأردن، إلى جانب العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربيَّة.

ما زالت هولاي جولايتلي، بطلة هذه النوفيلا، تحظى بالاهتمام الأدبيّ دراسةً ونقدًا؛ فهي أكثر شخصيّات كابوتي إحكامًا في بنائها، والأقرب إلى قلبه. هي شخصيّة خائفة، تُحبّ قُرب الرجال الأثرياء وارتياد صالوناتهم العامرة بالخيرات، لكنها في النهاية أتت إلى مدينة نيويورك من الرّيف الذي تحمل جماله الفاتن وبساطته وخفّته لكن دون سذاجة، فالغريب أن لها فلسفتها الخاصّة عن الحريّة وقبول الاختلاف الإنسانيّ، حتى أن مخاوفها وما يُثير قلقها هي أمورٌ لا تخطر على بال، وتسمّيها «النوبات الحمراء» وترى أن علاجها هو أن تقفز داخل أوّل سيّارة أجرة أمامها، قاصدةً متجر مجوهرات «تيفاني» الشّهير في الجادة الخامسة، فهو مكان آمنٌ من كل سوء كما تعتقد، تتنزّه بين الروائح المُبهجة الجديدة «للفضّة والمَحافِظ المصنوعة من جلود التماسيح.» ولذلك فإن أجمل أحلامها هو تناول الإفطار بالقُرب من متجر «تيفاني» لتستعيد حياتها ألقها.

يضمّ الكتاب أيضاً ثلاثًا من أشهر قصص كابوتي: «بيت الزهور» و«غيتار ماسّي» و«ذِكرى عيد ميلاد» والتي اعتُبرت من أكثر القصص إثارة للمشاعر في اللغة الإنجليزية.

حُوّلت إلى فيلم عام 1691 حملَ العنوان نفسه، وكانت النجوميّة للمثلة الشّهيرة أودري هيبورن.

«نصف النساء اللواتي عرفن ترومان كابوتي ادّعين أنّهن بطلة الرواية!»

Gerald

«إنّه أصدق كُتّاب جيلي وأدقّهم. لم يكن ليقبل أن يبدّل كلمتين في نصّه»

Norman Mailer


ISBN 9789948101055

